البرتو مورافيا

# حكايات من روما

( قصص )

ترجمة

محمد خليل

تقديم وتحرير

أحمد رجب

الكتاب: حكايات من روما (قصص)

الكاتب: البرتو مورافيا

ترجمة: مُحَّد خليل

تقديم وتحرير: أحمد رجب

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية ( ناشرون)




٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

**http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com**



دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

مورافيا، البرتو

حكايات من روما (قصص)/ البرتو مورافيا, ترجمة: مُحَّد خليل، تقديم وتحرير: أحمد رجب

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٦٣ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٦ – ٠٠٨ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٧٩٢٨ / ٢٠٢٠

# حكايات من روما

(قصص)





# مقدمة

## البرتو مورافيا وحكاياته عن روما

عاش الروائي الإيطالي الشهير البرتو مورافيا أغلب حياته في مدينة روما التي كانت مسرحا لأغلب قصصه، فكل قصصه إذن هي قصص من روما، فكان طبيعيا أن تظهر في كتبه ابتداء من عنوانها، ومن أشهرها رواية "امرأة من روما" التي أصدرها في عام ١٩٤٧ عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية، وفيها يقوم بتعرية الطبقة الوسطى الإيطالية وإظهار تناقضاتها الاجتماعية و الأخلاقية، ومنها أيضا كتابه "حكايات من روما" وهو مجموعة قصصية أصدرها في عام ١٩٥٤، وتتكون من سبع قصص وحكايات تبين كل واحدة منها مظهرا من مظاهر مجتمع المدينة القديمة، ومما يميز أدب مورافيا بشكل عام، وهذه المجموعة القصصية بشكل خاص تلك القدرة الكبيرة لمورافيا على سرد مواقف تكشف عن المشاعر والرغبات الجنسية لدى أبطاله، والأحداث التي تنشأ عبر تلبية تلك المشاعر والرغبات، وفيها يبتعد عن طابع الإثارة السطحية، غير أنه يمتاز بالتركيز على التحليل النفسي لنوع العلاقة بين الجنسين أو الزوجين.

***

ويجدر بنا قبل أن نلج في عالم المجموعة وقصصها أن نعرج على سيرة حياة وإبداع كاتبها، فقد ولد مورافيا عام ١٩٠٧ ( غير معلوم على وجه الدقة يوم وشهر الميلاد لكن المؤكد أن ميلاده كان في عام ١٩٠٧ ) لأسرة من الطبقة المتوسطة الأب هو المهندس المعمارى والرسام اليهودى كارلو والأم مسيحية كاثوليكية تدعى تيريزا إجينيا دي مارسانش، و اسمه الاصليّ: ألبيرتو بنكيرلي.

لم ينه ألبيرتو دراسته لأنّه اصيب بالسل الذي أقعده في الفراش لخمس سنوات لذلك، لم يتمكن من إنهاء التعليم التقليدى. بدلًا من ذلك، أمضى ثلاث سنوات في المنزل والعامان المتبقيان في مصحة.كان قارئًا شرهًا، ومن بعض مؤلفيه المفضلين: جيوشو كاردوتشى ودوستويفسكى وبوكاتشيو وجويس وجولدونى وشكسبير وموليير ومالارمو، وتعلم أيضًا اللغة الفرنسية ودرس اللغتين الإنجليزية والألمانية، وكان يكتب كتابة قصائده بثلاث لغات الإنجليزية والفرنسية والإيطالية.

ويقال أنه كتب أول قصائده وهو في الثالثة عشرة من العمر، واختار بعضها للنشر في أول كتبه وهو مجموعة شعرية بعنوان «١٨ قصيدة»، وأعقبها بنشر روايته الأولى «اللامبالون» التي نشرها وهو في الثانية والعشرين من عمره، وقد حققت له نجاح وشهرة كبيرين ومفاجئين ومبكرين. ويتناول فيها الفلسفة الوجودية، من خلال حديثه عن أسرة من الطبقة المتوسطة دب فيها الفساد الأخلاقي وصورها وهي تساعد الفاشية الإيطالية، و أعقبها برواية "السأم" وهي رواية فازت بأكبر جائزة أدبية في إيطاليا "جائزة فيارجيو"، و"دولاب الحظ" نشرت عام ١٩٣٩.

وعمل صحفياً في مجلة ٩٠٠، التي نشر فيها قصصه الأولى، مثل" اللصّ الفضولي "و"ظهور".

***

بلغت شهرة البرتو مورافيا حدا كبيرا، مما دفع كبريات الصحف والمجلات الإيطالية للتعاقد معه من أجل رواياته على شكل حلقات مسلسلة في الصحافة، وتم نفس الأمر بالنسبة لكتبه السياسية، وكتاباته في أدب الرحلات،

وحتى في رسائله ومقالاته النقدية، وأجريت معه حوارات مطولة حول مواقفه العلنية المناهضة للحرب والرأسمالية والاستغلال والقمع والتهميش والعنصرية. فلم يكن يخفي مواقفه وكان من أشد المعارضين للفاشية في أعماله والروائية التى انتقد فيها المجتمع البرجوازى في عصره على الرغم من انتمائه لهذا المجتمع..

تعاون مورافيا مع صحيفة «لا ستامبا»في عام ١٩٣٠،، بدأ النشر في مجلة «اليوم والشخصيات » في عام ١٩٣٣وسافر إلى الولايات المتحدة إثر تلقيه دعوة من إحدى جامعاتها لتقديم محاضراتٍ عن الأدب الإيطالى في عام ١٩٣٥، وهو نفس العام الذي واجهت فيه مقالات مورافيا حظرًا من جانب النظام الفاشى في إيطاليا.

ولتجنب الرقابة الفاشية، ناقش في كتابه الأنواع السريالية وجادل في ذلك واستخدم أسلوبا ساخرا لكن الرسالة وصلت إلى أقطاب الفاشية، وصادروا الطبعة الثانية من «الحفلة التنكرية»، مما اضطره في عام ١٩٤١ للكتابة تحت اسم مستعار، وذلك بعد منع النظام الفاشى روايته التى «المراهقان» من النشر.

وتم التضييق عليه وخشى أن يتم اعتقاله فاختبأ في مدينة فوندى، بالقرب من لاتسيو، بعد الهدنة في عام ١٩٤٣، وعاد إلى روما في شهر مايو عام ١٩٤٤، حيث تعاون مع السيناريست والصحفي الشهير كورادو ألفارو، ونشر مقالاته في صحف عديدة مثل « موندو» و « كوريير ديلا سيرا».

كما اشترك مورافيا في تحرير صحيفة "شعب روما" اليومية، إلا أنه واجه صعوبات شديدة وحصارا خانقا من السلطات الفاشية، وتلقى تحذيرات من مقربين بأن الجستابو ( البوليس السري الألماني ) يخطط لاغتياله، فاضطر في عام

١٩٤٣ للهرب ثانية الى جبال تشيوتشيا رو التى استلهم منها فيما بعد أحداث وفضاءات روايته "الفلاح" .

وبعد الحرب العالمية الثانية اتسعت شهرة مورافيا الأدبية على مستوى العالم، وترجمت رواياته إلى العديد من اللغات الحية، وربما كان تمرده على مجتمعه الذى ينتمى إليه من أهم العوامل التي ساعدت على شهرته وذيوع صيته، مما شجع مورافيا على الاستمرار في الكتابة، فتوالت كتبه حتى وفاته في عام ١٩٩٠، وكان آخر كتبه هو "حياة مورافيا" وفيه يقر بأن وعيه تشكل إثر محنتين الأولى إصابته بمرض سل العظام الذي أصابه في طفولته، ثم الفاشية التي غزت ايطاليا منذ العشرينات وحطمت روحها. ومن المعروف أن وعي مورافيا قد اكتمل عبر رد فعله على هاتين المحنتين، ما جعل أدبه التالي كله بمثابة رد فعل على صدمتهما للجسد والروح.

وفي عام ١٩٨٦ اختير ألبرتو مورافيا نائباً في البرلمان الأوروبى عن الحزب الشيوعى الإيطالى. وُجد مورافي ميتاً في حمّام شقّته في ٢٦ سبتمبر ١٩٩٠. وفي العام نفسه كتب الكاتب الإيطالى الشهير لويجيو بومبانى سيرة ألبرتو مورافيا الذاتية. وفي عام ٢٠٠٧ تم الإعلان عن اكتشاف رواية جديدة للروائى الايطالى ألبرتو مورافيا، حيث تم العثور على مخطوط رواية قديمة غير منشورة له، وعنوانها" الصديقان" وقد عثر على مخطوط الرواية القديمة غير المنشورة في قبو منزل الكاتب.. وتتضمن اعترافات وحقائق حول حياة مورافيا وقد كتبها عام ١٩٥٠.

***

وإذا قرأنا قصص مجموعة (حكايات من روما) نجدها تبدأ بقصة "الخدعة"

وفيها يحلل نفسية الفتى الريفي، الذي يجد نفسه فجأة في المدينة، ووسط عوامل الغواية، دون أن تكون له خبرة سابقة أو تجربة تقيه الانزلاق، فيتم خداعه بسهولة ويفقد أمواله.

وفي قصة "رجل؟"، يرسم لك صورة الزوج الضعيف، الذي يسرف في إرضاء زوجته إلى درجة القيام دونها بأعمال البيت، فلا يفوز إلا باحتقارها..

أما في قصة "المطر في شهر مايو" فيصور أسرة رجل ديكتاتور، متزوج من امرأة ضعيفة، ولكن ابنتهما تشعر بجمالها، ومن ثم فإنها تتمرد على الاستعباد، وتحاول أن تغوي رجلا ليساعدها في التخلص من أبيها!

وفي قصتي: "فاتنة سائقي السيارات" و"في سبيل حذاءين"، يقدم صورا مختلفة لحياة الطبقة الدنيا في إيطاليا..

أما في "الكنز"، فيتناول لونا من القصص لم نعرفه عنه من قبل، حيث يأخذ إحدى الأساطير القديمة، فيبعث أفرادها إلى الحياة في شخصيات حديثة تلتقي بها في كل يوم، ثم يصوغها بحيث يلبسها ثوب الحياة العصرية، دون أن يفقدها الحكمة والمغزى اللذين ترمي إليهما القصة.

وفي القصة الأخيرة بالمجموعة "لن أقول: لا"، يحلل سببا من أسباب تفكك الأسرة، ذلك هو "العناد" والجدال المثيرين بين الزوجين، في أتفه الموضوعات.. وهو عيب يصيب الحياة الزوجية في كل مجتمع، وكثيرا ما يؤدي إلى انهيارها.

وتؤكد هذه القصص قيمة يعتبر ألبرتو مورافيا كأحد الكُتاب الكبار للقصة القصيرة ذات الاتجاه الواقعي، رغم ما تتمتع به مخيّلته من خيال خصب وقدرة على خلق المصادفات المؤثرة في العمل القصصي، فقد كانت الحاجة

ماسة لإيجاد حلقة وصل بين المشاكل النفسية التي عاناها المجتمع الغربي ومشاعره الإنسانية بعد الحربيين العالميتين، وكانت هي نفسها حاجة مورافيا لتوظيف قدراته ضمن هذا الاتجاه الذي وجد فيه ضالته لمواجهة إشكالياته الفنية التي ترفض التحرر من أسلوبه الرمزي وخياله المنفلت، ما جعل مورافيا يكتبَ في مقدمة «إمرأة من روما» أن شخوصه المحليين وأماكنهم وأزمنتهم وطريقة اختياره لهم لم تفرض عليه أن يتحدثوا بلغتهم المحلية، موضحاً: «كوني لا أجد غير لغة الأدب لغة قادرة على التواصل بشكل ممتع وحساس مع متطلبات حاجات الذات للوصول الى قدرات أرقى تعبيراً، لذا نهضت اللغةُ بشخوصي، ومهما تكن اللغة المحلية التي استخدمها بعض من القصاصيين تحت غطاء الوقائع فإنها لن تأتي بالبعد المطلوب لرؤية الحقيقة، وهي ضمن التوريد الجمالي للحوادث والوقائع».

هكذا يرسم مورافيا المعطيات مثلما هي، بل يحرص على نقلها بشكلها المألوف في الذاكرة، فعندما يتحدث عن محل للحلاقة في أحد قصصه يجعل المتلقي يدخل ذاكرة هذا المحل قبل دخوله المعتاد إليه، أي أنه يتقدم أولاً نحو العام ثم يشرع في تفكيك هذا العام بمستويات بطيئة، مع الإمساك بالمفاصل المهمة للمرئي، لينشئ من خلالها حبكته غير المتوقعة، فحين يضع أمامنا الأمور المعلومة التي تشبه القوانين يأتينا بنتائج غير متوقعة عبر لغة شبه مألوفة يصلح وصفها إصطلاحاً بلغة الواقع، لكنه سرعان ما يعطي رشقات من المغايرة في أسلوبه تحفّز الذهن وسرعان ما تُقبل بل وتنسجم مع المتغيرات الصورية بين منحنيات الأسلوب، ففي قصة «طفلهما السابع» يقول مورافيا: «عندما زارتنا السيدة الفاضلة مندوبة جمعية رعاية الأحداث طلبت منا بيان أسباب إنجابنا لهذا العدد من الأطفال بعدما رزقنا بالطفل السابع. أخبرتها زوجتي بالحقيقة حين

قالت لها «لو كان في استطاعتنا أن نملك مالاً لأمضينا أمسياتنا في السينما أو في نوادي الترفيه، وإذ لا مال متوافراً نذهب الى المخدع الزوجي باكراً».

السيطرة على الحدث وكثافته، والتركيز على معطياته وتفاصيله المختصرة والمؤثرة في سير السرد القصصي، هي من العلامات الفارقة في أسلوب مورافيا، وثمة العديد من الشواهد على هذه العلامات الفارقة في مجموعته القصصية «حكايات من روما» .

أحمد رجب



## الخدعة

يرجع خجل "جانماريا" إلى صغر سنه وجموح خياله.. كان خجله متأصلا في أعماقه، ولكنه كان مصحوبا برغبة جامحة في الظهور بمظهر الشخص السريع، غير المتردد.. وكانت هذه الرغبة تشتط أحيانا، فتفضي إلى نوع من الوقاحة التي تجمع بين النزق والتخبط. فإن خوف الفتي من شعوره بالخجل، كان يتسلط عليه – أحيانا – فيدفعه إلى الرعونة في تصرفات تستلزم بطبيعتها حذرا، أو إلى أن يندفع كالأعمى إلى مشروعات غير مجدية، أو خطرة، كما أن إلحاح رغبته في أن يغالب طبيعته، كانت تسوقه إلى تصرفات تمليها عليه تقديرات غير واضحة، وكانت أعجب خصاله أنه لا يكاد ينتهج نهجًا ما، حتى يستغرق –كما يفعل فريق من كبار الممثلين – في دوره الزائف، إلى الحد الذي يصدق معه أن الزيف حقيقة.. والحق أنه يشعر بأحاسيس معينة، نشأت في البداية عن مجرد وهم وإيحاء ذاتي!

هذا ما حدث له في أحد "بنسيونات" روما، عقب وصوله من مسقط رأسه بوقت قصير.. كان وحيدا، بلا صديق. فعقد عزمه– بعد أن قضي أسبوعا في وحدة ممضة– على أن يخاطب أحد نزلاء "البنسيون" ولكن، أيهم يختار؟ ولاح له – عندما أطال التأمل– أن أنسب شخص يمكن أن يجاذبه أطراف الحديث، هي فتاة تدعى "سانتينا"، اعتاد أن يراها يوميا، في قاعة الطعام، ولم يكن من السهل– عندما وقع اختياره عليها – أن يجزم بما إذا كان يميل إلى الفتاة –حقا.. كان أهم غاياته هو أن يبرئ نفسه من الحياة، بأن يتحدث إلى الفتاة.. ثم لن يلبث أن يغازلها، بطبيعة الحال، وإلا أخفق في أن يؤدي ما يجب

عليه كرجل!

مرت ثلاثة أو أربعة أياما، دون أن تسنح له الفرصة لينفذ خطته. وفي تلك الأثناء، كان دائبا على مراقبة الفتاة، مما جعل تفكيره فيها كوسيلة للتغلب على حيائه، يتضاءل عن تفكيره فيها كإنسان، ومن ثم فإنه بدأ يفطن إلى أنه كان يميل إليها، فلم يعد يفكر إلا في "سانتينا" وضرورة الحديث إليها.. ولم يعد يجد إلى النوم سبيلا.. وأصبح يمسك أنفاسه –كلما التقى بها– ويشحب لونه، ومع أن تهيبه ظل قائما على حاله، إلا أن أمانيه راحت تزداد جرأة. وانقضت بضعة أيام أخرى، عانى خلالها "جانماريا" ذلك الشعور بكل ما ينتاب العاشق من تباريح وأشواق، إذا لم يفطن محبوبه إليه، وفي أمسية اشتد فيها غيظه من نفسه، وصبابته، اتخذ أحد القرارات المفاجئة التي امتاز بها.. فعزم على أن يتحدث إلى "سانتينا" أثناء العشاء أو بعده.. قبل أن ينتصف الليل، ومهما يكن الأمر! عندئذ شرع يعنى بزينته، أكثر مما اعتاد، وكان قد أمضى فترة ما بعد الظهر مضطجعا على الأريكة الخشنة– التي غاص وسطها لفرط الاستعمال– يذاكر "مدخل القانون الدولي"، ويدخن السيجارة تلو السيجارة، فإذا الحجرة الواسعة، ذات الإضاءة الضعيفة، والسقف المثقل بالزخارف، والأثاث القاتم.. تمتلئ بضباب أزرق كثيف، خلع على المكان– الذي كان باردا– مظهر الدفء والحرارة. وفي اللحظة التي سمع فيها الصوت المعدني الأجوف، يدوى في الردهة ينبه إلى الاستعداد للعشاء، ألقى كتاب القانون جانبا.. لكنه لم ينهض الأريكة، إذ أنه اعتاد أن يتناول وجباته وحيدا، وأن يلتهمها بسرعة، فشاء أن يكون آخر من يبلغ قاعة الطعام كي لا يكون أول من يبرحها.

بيد أنه لم يمكث في مجلسه لأكثر من لحظة. ثم نهض فجأة، متجها إلى

المرآة فتأمل وجهه.. وبالرغم من أنه لم يكن ثمة عيب أو تشويه فيه إلا أن "جانماريا" كان موقنا من أنه قبيح الشكل، نظرا للطابع الصبياني الذي كان يسود قسماته غير الناضجة.. كانت له ملامح مراهق، وكانت ثمة ثلاثة معالم لا تروق له بشكل خاص، إذ كانت تبرز المظهر الصبياني الذي كان يخجل منه: فهناك التجعدات الشبيهة بمخلب الغراب، التي تتجمع تحت عينيه السوداوين، فتوحي بالسأم، وتنم عن حياة مضطربة.. وهناك الشعر البني القاتم الخشن، الذي يتجمع فوق جبينه.. لقد حاول عبثا أن يستعين بالسوائل لإكسابه نعومة.. ثم تلك البثور الناتئة، المتكاثرة التي انتثرت على عنقه وجبينه وخديه، تحت الزغب الذي بدأ ينمو في تلك المواقع.. وكان هذا أبشع العيوب جميعا!

راح يتأمل صورته في إمعان.. ولكن وجهه سواء أكان حسنا أو قبيحا، استهواه، دون أن يدرى لهذا تعليلا.. ما الذي كان يقبع متواريا وراء البريق الغامض الذي كان يتألق في عينيه؟.. ومن أين له ذلك الخط المنحني حول جانب فمه، والذي ينم عن شيء من المرارة؟.. أو لم يكن ثمة أثر من العزة الارستقراطية في الانحناءة، التي لم تكد تكون ملحوظة، والتي اتخذها حاجباه الكثيفان؟

هكذا كانت الأسئلة التي وجهها إلى نفسه، وهو يتفحص صورته في المرآة. ولاحظ أيضا أن بثوره بدت متضائلة، بفضل رعاية خارقة أولاه القدر إياها في ذلك اليوم الذي كان عظيم الأهمية لديه.. وكانت ثمة بثرة تحت صدغه، ولكنها كانت في بداية نتوئها.. وما بالواضحة في ذلك المساء رغم أنها كانت مؤلمة!

وعندما فرغ من تفحص وجهه، شرع في ارتداء ثيابه.. ولم يكن يملك سوى بزتين، إحداهما رمادية للنهار، والأخرى زرقاء للأمسيات.. وكان يرتدي

الأولى، فأخرج الثانية من الدولاب الضخم المليء بالمشاجب، وأخرج زوجا من الأحذية السوداء، أوشك على البلى، وإن ظل في حال جيدة.. ومن أحد الأدراج، أخرج الجوربين الحريريين الوحيدين اللذين كان يمتلكهما، ثم خلع ما كان عليه من ثياب، في عجلة، وتأمل شكله لحظة في المرآة الضخمة المعتمة.. ولم يكن معتادا على أن يرى نفسه عاريا، فتأمل الصورة بعين الدهشة التي كان خليقا بأن يشعر بها إذا رأى جسد امرأة عارية. ثم ارتعش، وقفز على بلاط الحجرة الجليدي، صوب الباب. وتناول، من مشجب كان مصوغا على شكل شمعدان، الثوب الوحيد الذي كان معلقا عليه.. وكان قميصا أبيض، ارتداه مرة واحدة –قبل الليلة– ولكنه ظل نظيفا، وارتدى القميص، والجوربين، والبنطلون ثم سار إلى حوض الغسيل، الذي حف به أبريقان ضخمان مليئان بالماء، ووعاءان واسعان من الخزف الأخضر الموشى بالزهور، فغسل يديه ووجهه بالماء البارد. بدد بعض الوقت في البحث عن قطعة الصابون التي انزلقت عن الرخام المبتل، وهوت إلى الأرض، ثم دس رأسه في الماء، وضمخ شعره المبتل بالدهان، وشرع يمشطه بعناية. ولكن الشعر كان مثقلا بالماء وبالدهان أكثر مما ينبغي، فعاد يمشطه بشدة، ولكن البلل كان قد زال، فلم يعد الشعر متماسكا، وإنما انتصب في غير تناسق، كشوك القنفذ، واضطر "جانماريا" إلى أن يدس رأسه في وعاء الماء مرة أخرى. ولم يستعمل المشط بل مسح على شعره براحته المضخمة بالدهان، ثم لفه في المنشفة وقد جعلها كالعمامة. وراح يذرع أرض الحجرة ورأسه معمم، وهو ينفث غيظه، محاولا تثبيت ياقة قميصه المنشأة. فلما انثنت طوح بها بعيدا، وتناول ياقة أخرى، كانت الوحيدة التي تبقت لديه، فتمكن من تثبيتها، وفيما كان يعقد رباط عنقه، شرع الرنين المعدني يدوي في الردهة من جديد، في جرس غير بهيج.. كان موعد العشاء قد حان. فطغى عليه ذلك القلق وذلك الخجل اللذان كان على دراية جيدة بهما.. وأخذ قلبه يخفق في

عنف، وتولاه ارتباك لدرجة أنه فتح باب غرفته ودلف إلى الردهة، والمنشفة تحيط برأسه. على أنه عندما بلغ عتبة الباب، التفت كعادته وألقى نظرة على مرآة منضدة الزينة، فطالعته صورة هندي ذي وجه أسمر، مريب الظهر، تحت عمامة بيضاء.. وبقفزة واحدة، كان في داخل غرفته ثانية. ونسى كل شئ حتى "سانتينا" في غمار الانفعال الذي غشيه لحظة من الزمن، حتى إذا غادر غرفته –في النهاية– أحس بارتياح لأن هذا السهو قد هدأ من اضطرابه! كان "بنسيون همبولت" ملكا لامرأة انجليزية مسنة، شغفت بروما.. أما الآن، فتديره –لحساب الورثة– أرملة شابة تدعى "نينا ليبري" وكان يشغل الطابق الرابع من مبنى ضخم، كئيب المنظر، اثقلت واجهته بزخارف من الجص، وقوائم المصابيح الكهربائية، والشرفات، والأعمدة.. كلها طليت باللون الأصفر وقد تخلله تراب أسود.

كان "البنسيون"متوسط المستوى.. ففيه عين الأثاث القديم العطن العبير، وعين النظافة التي لا تمس سوى الظاهر، وعين الأريج المنبعث من الطهو، وعين السكون العميق، وعين الروحات والجيئات والحركات –المشوبة بالغموض– بين حجرة وأخرى على أنه كان يمتاز بشيء واحد، لم يكن يجعله مختلفا عن سواه، بقدر ما كان يبديه أفخم من كل عداه.. ذلك هو عدد ردهاته وطولها. فما كان "بنسيون همبولت" ليعتبر نزلا غير عادي فحسب، كانت ردهاته منخفضة السقف، طويلة، ضيقة، معتمة، تتخللها أبواب مزدوجة معتمة.. وكانت الردهات تمتد في كل اتجاه، فتكسب المسكن بأسره مظهر مدينة دفينة من مدن الموتى القديمة المتشابكة المسالك!.. وكانت هذه الردهات متداخلة بعضها في بعض، حتى إن "جانماريا" ظل بعد انقضاء أسبوع على وصوله على ما كان عليه في أول أيامه، من جهل بمواقعها واتجاهاتها، فكان يسير فيها متخبطا، لا

يسترشد بغير الحدس والتخمين وما أن غادر "جانماريا" غرفته في ذلك المساء، حتى تبين أنه نسى طريقه إلى غرفة المائدة، كان كل ما تبقى في ذاكرته، هو أن للحجرة بابا ذا زجاج أخضر، فتردد قليلا، ثم انطلق في ردهة طويلة وانحرف في نهايتها إلى ردهة أخرى، لمح في نهايتها ألواح الزجاج الخضراء اللامعة، التي كان ينشدها. فقال لنفسه: "ها قد وصلنا!". وجذب أطراف سترته، ومس رباط عنقه، واصطنع الوقار.. ثم دخل الغرفة، ولم يفطن إلى أنه ولج غرفة غير التي كان يقصدها، إلا بعد أن أغلق الباب بحرص وعناية، ثم استدار ليسعى إلى مائدته. فإذا بصره يقع على غرفة من غرف النزل العديدة، لها عين السقف المرسوم المعهود، والأثاث ذو العبير العطن، وغبرة القدم وطول العهد. على أنها كانت تختلف عما عداها بوجود حاجز بعرض الحجرة، فقد علقت فوقه في فوضى بعض الثياب النسوية، وإلى جانب الحاجز، كانت ثمة امرأة في وضع عجيب جدا، وقد نم شكلها عن أنها "سانتينا" وكانت تستند بإحدى كتفيها إلى الحاجز، محاولة أن تخرج رأسها من ثوب نهاري كانت تخلعه.

كان رأسها وذراعاها محبوسون في الثوب المقلوب، وكان جسدها الذي راح يتلوى في جهد للتخلص من الثوب مكسوا بقميص ذي لون أخضر باهت، ووشي ذيله بـ "دانتيلا" صفراء، واستقر على الكتفين بشريطين ورديين. وبالرغم من أن "جانماريا" جزع للمفاجأة، إلا أنه لم يقو على أن يقاوم الرغبة في البقاء، ليملي بصره من جسم الفتاة التي كان يعرف وجهها المستتر في الثوب تمام المعرفة، بدا جسمها نحيلا كجسم صبية يافعة، غير ملفوف القوام، ذا منكبين ظاهري العظام، وبطن منبسطة، وردفين بارزين وكانت "الدانتيلا" التي تذيل القميص، تنتهي عند منتصف فخذيها، منحسرة عن ساقين نحيلتين، غير متناسقتي التكوين، تبرزان من جوربين قاتمين.

وألفي "جانماريا" نفسه يتأمل تلك المفارقة العجيبة بين نحول الجسد الشبيه بجسد الصبية، وحلمتي الثديين المستديرتين المتوارتين خلف القميص الأخضر، فقد كانتا كبيرتين بدرجة غير عادية، وكأنهما قطعتي عملة كبيرتين قاتمين، كذلك اجتذبت انتباهه مفارقة أخرى تمثلت في الشعر الكثيف، الطويل، الذي ملأ ابطئ الذراعين الرفيعتين المرفوعتين إلى أعلى وفي ثانية واحدة، انطبعت في ذاكرة "جانماريا" إلى الأبد صورة الجسد ذو الرأس الملتف في الثوب، والكتفان العاريان، والحاجز بما عليه من ثياب ومناشف.. ثم انبعث صوت خشن غاضب صائحا في لهجة إقليمية ظاهرة "من هذا؟" وفي الوقت ذاته، صدرت من ردفي الفتاة وساقيها حركة غاضبة نمت عن نفاد صبر، ثم دقت الأرض بكعبها. تمتم "جانماريا" وكأنه يوجه الكلمات لنفسه وليس للفتاة : "لا شيء هناك" ثم انسحب مسرعا إلى الردهة، مغلقا خلفه الباب الذي اهتز زجاجه الأخضر محدثا رنينا. وكان لرؤيته جسم "سانتينا"في هذه المناسبة غير المرتقبة، أثر عميق على ذهنه الذي لم تتح له مثل هذه التجربة.. وأخذ يحدث نفسه بأنه لن يكون صالحًا لأي شيء، إذا أخفق في أن يظفر بهذه الفتاة السهلة المنال. بيد أن خططه لإغوائها لم تكن سافلة كما قد يبدو لأول وهلة.. فلقد كان "جانماريا" يشعر بأن عليه أن يجعجع ولن يسلك مسالك المستهترين العابثين، ولكن مشاعره الحقيقة كانت بريئة طاهرة.. وكان فاضلا، برغم شخصيته المتأججة العواطف.. كانت أحاسيسه تشبه كل الشبه أحاسيس الشبان الذين يفدون من الأرياف، والذين يقعون في الحب مرة، ثم يبددون شبابهم في اتصالات طويلة، مستحيية!.. كان يظن أنه أوتى من برود الأعصاب ما يستلزمه إغواء الفتاة، ولكنه كان خليقا بأن يتردد بعد المحاولات الأولية، مهما تكن موفقة، وأن يعجز عن كبح الوساوس التي تراود ذهنه الغشيم، الذي لم يؤت تجربة أو خبرة!

بلغ جانماريا قاعة الطعام، وهو مستغرق في هذه الأفكار، فعاد يتخذ مظهر الرجل المعتد بنفسه، غير المكترث لشيء، الذي لا يتجلى على أساريره ما يجول بنفسه، وهم بالدخول محاولا ألا يحدث أي صوت، ولكن الباب أبي أن يفتح في بادئ الأمر ثم تحرك فجأة، فإذا الواحة الزجاجية المقلقلة في إطاراتها تهتز كحزمة من الأجراس الصغيرة، مما جعل الفتي محط أنظار جميع زملائه النزلاء.. وارتبك.. وسار بخطى غير ثابتة نحو مائدته، على الأرض الخشبية التي كانت تئز تحت قدميه، غير منتبه إلى التعبير الذي ارتسم على محياه، وكأنه يقول: "لا شيء هناك.. ولا قادم سواي!" وكان الفارق الوحيد بين قاعة المائدة والغرف الأخرى في النزل، ينحصر في شكلها. فقد كانت بالغة الطول بالنسبة إلى عرضها، حتى لتكاد تشبه النفق.. وكان لها سقف عال، مقوس، مزركش بالزخارف العربية الحائلة، غير الواضحة، المعهودة. وكان ثمة مصباحان، أحيطا بوقاءين زجاجيين أبيضين، يرسلان ضوءا وأهنا على الموائد التي صفت محاذية للجدارين الطويلين. وقامت في أحد أطراف الحجرة مائدة أطول مما عداها، وضعت بعرض المكان، وقد حملت أكواما من الصحاف وأدوات المائدة، واثنتي عشرة سلة صغيرة زينت بأشرطة حمراء، واحتوت كل منها على تفاحة، وثمرة من اليوسفي، وثمرة من فاكهة صغيرة مجففة.. تلك كانت المائدة التي اعتادت الخادمات أن يستعملنها في غدوهن ورواحهن وهن يخدمن الطاعمين.. كما كانت "نينا ليبري"– مديرة النزل –تقضي الوقت واقفة بين هذه المائدة وثغرة في الجدار خلفها، كانت تمتد خلالها –بين وهلة وأخرى– ذراع الطاهي ناقلة صحاف الطعام من المطبخ. وكانت المديرة تحتل – وراء هذه المنضدة المحملة بأدوات المائدة – مركزا يمكنها من الإشراف على القاعة بأسرها، من أدناها إلى أقصاها، حيث الباب الزجاجي الأخضر، وعلى صفي الموائد التي كان النزلاء يجلسون إليها، والتي جلس "جانماريا" وحيدا إلى آخر واحدة منها، وقد نفخ

صدره، وولي وجهه شطر طبقة وزجاجته.. في وضع يقابل تماما ذاك الذي وقفت فيه المديرة، ومن ثم فكثيرا ما كانت نظراتهما تلتقي!

وكانت نظرات خالية من أي معنى، اللهم ألا تقدير النزيل وقياس قيمته.. فإن المديرة وأن حرصت على إنشاء روابط الألفة مع نزلائها، وكأنهم أفراد أسرة هي ربتها، إلا أنها لم تكن تولي أحدا منهم ثقتها.. بل أنها كانت تحرص على أن تجعلهم بمنأى عن حياتها الخاصة! ولقد كانت المديرة طويلة القامة، ومن الممكن اعتبارها جميلة.. او هكذا خطر لجانماريا وهو يرقبها، لا لأنه كان يؤثر رؤيتها، وإنما لأن مجلسه كان يواجهها.. كانت ناصعة البشرة، ذات وجه شاحب بارد، وعينين واسعتين مفعمتين بالطمأنينة، وأنف طويل أقني، يعلو فما واسعا معوجا، وشعرها أسود، تنسقه بحيث ينسدل على أذنيها، ويتجمع في دائرة كالكعكة فوق قفاها. أما صدرها وردفاها فكانت لينة، ممتلئة، ولكنها لم تكن جميلة.. ومع ذلك، فقد كانت توحي بالإغراء العارم الناعم، الذي تمتاز به الأشياء الطريقة الناعمة. وكانت حركاتها ووجهها تنضج بطمأنينة مسترخية. وقد اعتادت أن ترتدي ثيابا سوداء. كما أن مظهرها الذي ظل طافحا بالشباب، وإن زحفت عليه مرحلة أوسط العمر —وخلقها المتزن الرصين، يجعلانها تبدو وكأنها مثال مجسد للجو الذي كان برين على الردهات الطوية، وعلى الحجرات المعتمة في نزلها! وكانت المديرة تقف خلف المائدة حين ولج "جانماريا" القاعة، وكانت تمسك في يدها مغرفة توزع بها الحساء من وعاء كبير يتصاعد منها البخار، بينما كانت ساقيتان توافيانها بالأقداح، وكانت "سانتينا" وأمها الغائبتين الوحيدتين. ولم يكن في النزل أفراد كثيرون.. كان ثمة عروسان ريفيان، لهما وجهان خشنان أحمران، لم يكونا يتكلمان قط، ولا كانا يكفان عن الابتسام إطلاقا.. وكان ثمة موظف كهل، أوشك أن يفقد بصره وأسنانه، وقد امتاز عن

سواد بأنه لم يكن يتناول سواء في النهار أو في الليل سوى الدجاجات الصغيرة المسلوقة.. وكان يزهو بذلك، في غباء الرجل الذي لا ينشغل بغير صحته وبغير إحصاء مئات بل آلاف الدواجن التي التهمها في حياته!.. كذلك كان ثمة انجليزيتان مسنتان، شاب شعرهما، ولازمهما مرض النقرس. وكانت إحداهما تحتفظ في غرفتها بكلب صغير أليف، فكانت تحرص –أثناء الوجبات– على أن تضع فضلات طعامها في طبق صغير تحمله معها، وهي تعرج وترتجف في سيرها، إلى كلبها المدلل!..

و كان هناك شخص يدعى "السنيور نيجريني" وكان رجلا في أوسط العمر، يتناول طعامه وحيدا، بيد أنه كان يبدو على صداقة مع "سانتينا" وأمها.

وكان كل هؤلاء يتبادون الأحاديث وهم جلوس إلى موائدهم بأصوات عالية، فيصدرون التعليقات بين لقمة وأخرى، عن جودة الطعام، وعن الأنباء التي طالعوها في صحف الصباح.

وبعد أن جلس "جانماريا" بنظرة سريعة، في القاعة، شرع يتناول طعامه. ومع أنه لم يشأ أن يعترف – بينه وبين نفسه – إلا أن حميته بدأت تثبط، إذ خطر له أن "سانتينا" وأمها قد تكونا مدعوتين إلى العشاء في الخارج. وود لو جرؤ على أن يسأل "نيجريني"، الذي كان يجلس إلى المائدة المجاورة، والذي كان يحدس أنه على علم بكل شؤون المرأتين، بيد أن خجله المعتاد منعه من أن ينبس بكلمة واحدة. ولقد فتح فمه أكثر من مرة ليقول شيئا، ثم أغلقه من جديد، وقال لنفسه: "سأعد عشرة، ثم أتحدث إليه، ولو كان في ذلك حياتي أو مماتي!". وبعث هذا القرار في نفسه شعورا بالتحرر، إذ أحس أنه قد جاوز نطاق الانطواء والتردد، الذي كان خجله يضربه حوله. ومن ثم شرع في العد ببطء، وقد ثبت بصره على المديرة، التي كانت تقف وراء منضدتها بين صفين من الصحاف..

وكأنما كان ينظر إلى صورة قديسة غائبة بوعيها عن المكان منصرفة إلى أفكارها، فوق هيكل، بين شمعتين هائلتين!.. وعندما بلغ في العد إلى "خمسة"، أمسك لحظة، ثم همس بصوت خافت، ولكنه واضح: "ستة، سبعة، ثمانية"..

وفي تلك اللحظة سمع رنين الزجاج لدى الباب، وأقبلت المرأتان.. فاندفعت الفتاة في القاعة وكأنها شديدة التعجل، فحيت النزلاء الآخرين بإيماءات سريعة من رأسها وعينيها، ورداء السهرة الطويل –المصنوع من حرير أزرق خشن– يحيطها بحفيف مسموع.. وتبعتها أمها –التي كانت قصيرة، بادية الوقار والرصانة –في غير عجلة، وهي توزع النظرات حولها من عينين سوداوين خابيتين. وتذكر "جانماريا"–بجلاء تام– الجسد نصف العاري، الذي رآه في الحجرة ذات الحاجز، فلم يتمالك أن راح يقارن بينه وبين الرأس الذي لم يعد الآن محجوبا عن عينيه.. وانتهي إلى أن الوجه الوحيد الذي يلائم الجسد الأنثوي غير الناضج –الذي رآه– هو ذلك الوجه الذي كان يتبدي لعينيه إذ ذاك. كما جزم بأنه ما كان في وسع أي فم آخر–سوى فم ذلك الوجه– أن يطلق تلك النبوات الأجشة، غير الرقيقة، التي كانت لا تزال ترن في أذنيه!.. وكان شعرها الأسود، الخشن، المجعد، يتهدل على عنقها وكأنما كانت تحركه نسمة مسترسلة دوت توقف.. أما جبينها الخشن الضيق، فقد كانت تتخلله خطوط غير ظاهرة، توحي بالعناد والاستهتار المنبعثين عن ذكاء محدود!.. وكانت عيناها كبيرتين، تبدوان كما لو كانتا تبرزان، إلى أبعد من مستوى خديها، تحت جفنين متورمين.. وكانت نظراتهما تشي بضيق العقل وبالجشع، كعيني شخص يدمن تعاطي المخدرات!.. كما كانتا تنمان عن زيف أحمق ناشئ عن تيار دافق من أفكار نابعة من طبيعة عملية. وكان صدغاها الناتئان، وأنفها الأفطس، وفمها الواسع الذي كثيرا ما كان ينفسح عن ابتسامة مبهمة لا معنى

لها –فيكشف عن أسنان متباعدة غير متناسقة– وذقنها الدقيقة التي لا تكاد تبدو تحت شفتها السفلي الغليظة..

كل هذه كانت تكمل صورة هذه الـ "سانتينا"، التي أصبح "جانماريا" مفتونا بها إلى درجة أنه لم يعد يحب حسناتها القليلة فحسب، بل أنه أصبح يحب عيوبها الكثيرة، كان وجهها مكسوا بطبقة من "بودرة" في بياض الجير، وشفتاها مخضبتين بطبقة كثيفة من طلاء الشفاه الأحمر. وعندما جلست إلى المائدة، لم يسقط الضوء على وجهها مباشرة، فإذا الظلال تزيد جفنيها المتورمتين بروزا، والخطوط غير الواضحة على جبينها نتوءا، والبثور المتطفلة على خديها ظهورا.. وبينما كانت تتظاهر بالكلام مع أمها، راحت تثبت نظراتها الجشعة، المجردة من الحياء، على "جانماريا". أما هو، فمع أن عزمه على الظفر بسانتينا لم يكن منبعثا عن أي حافز، اللهم ألا رغبته في أن يرضي كرامته وتقديره لنفسه، إلا أنه أحس بأشد الآمال جرأة تغزو رأسه، وهو يلاحظ نظراتها، التي كانت شيئا جديدا عليه، غير مرتقب منه، في ذلك المساء. وراح قلبه يخفق في عنف، وأنفاسه تتابع في شهقات قصيرة.. وخيل إليه أنه يرى "سانتينا"، بجسدها النحيل المتنافر الملتف بقميصها الأخضر، وبساقيها الرفيعتين في جوربيهما الأسودين، مستلقية على سرير. وفيما كان يعبث بالطعام راح يرمق الفتاة بنظرات خيل إليه أنها كانت مستخفية. ولكن جرأة هذه النظرات لم تتبد للفتاة وحدها –في الواقع– وإنما تكشفت للنزلاء الآخرين كذلك.. بل ولمديرة النزل، وهي تقف وراء منضدتها، في الطرف المقابل له من القاعة!

وما إن حان دور توزيع ثالث أصناف طعام الوجبة، حتى كان تبادل النظرات بينه وبين الفتاة على أشدة.. بل إنها ابتسمت له، في تلك اللحظة، ابتسامة مفضوحة، مهيجة، ذات طابع خاص واضح، بينما كانت تؤمئ بطرفها

نحو أمها، وكأنها تقول له: "إنني أميل إليك، ولكن.. حذار، فإن أمي هنا!".. وما لبثت الخادمتان أن رفعتا الصحاف المتسخة، ووضعتا صحافا نظيفة بدلا منها. ورأى "جانماريا" المديرة ترفع عن المنضدة صفحة (صينية) كبيرة، فتسلمها إلى إحدى الخادمتين.. تلك كانت صفحة الجبن، التي توزع الفواكه بعدها، ثم تنتهي الوجبة. غير أن الخادم الأخرى شغلت بطبق صغير، لم تبد فيه سوى قطعة واحدة من الجبن، حملتها وعبرت القاعة، متجهة صوب "جانماريا" مباشرة!

وكانت الخادمة فتاة ريفية ساذجة، ذات خدين ممتلئين موردين، وقد اعتادت دائما أن تنفجر ضاحكة عند أول بادرة تدعو إلى الضحك. ولعل هذا العجز الدائم عن كتمان الضحك، هو الذي شغل "جانماريا" عن الارتياب في أمرها، عندما شاهد وجهها يتألق —وهي تقدم له الجبن— وكأنما أضاءه مصباح ما بضوء طروب خبيث.. حتى أن يدها —ذات القفاز القطني —أخفقت في أن تحجب الضحك الذي أخذ ينفث من فمها!

ولعل السكوت الذي حل محل صلصلة السكاكين والملاعق —في قاعة المائدة— كان كفيلا بأن ينبهه، لولا أنه كان مستغرقا في انفعاله غير العادي، وفي مئات الخطط المجنونة التي كان يرسمها، فلم يفطن إلى السكون ولا إلى الضحك!.. وكان الطبق يحتوي على شريحة واحدة من جبن "جروبير" المائل إلى الصفرة. واقتطع "جانماريا" لنفسه شطرا، في شيء من العناء، لأن الجبن كان جافا، متيبسا.. ثم نقل نصيبه إلى طبقه، وشرع في التهامه في شيء من البرم، وكأنه ندم على أن أخذه.. ذلك لأنه لم يفطن إلا بعد أن مضغ القطعة الأولى إلى المذاق المثير، غير المستساغ، الذي ملأ فمه.. كان مذاقا يغاير كل مذاق ممكن لأي نوع من الجبن، وقد اختلط في البداية بطعم الخبز، ثم طفي عليه.. وكأن له في الواقع طعم الصابون!

وكان "جانماريا" بعيد الذهن عن أن يرتاب في أن يكون للطعم علاقة بالمادة التي كان يمضغها، حتى أنه ارتاب في حاسة الذوق لديه، بالرغم من اضطراره إلى أن يبصق ما كان في فمه.

فلما شعر بالحيرة والاشمئزاز، شرع يفحص القطعة الباقية من جبن "الجروبير" بطرف سكينه. ثم سمع صوت "سانتينا" ينبعث في جلاء، وفي مقاطع واضحة. "هل يروق لك مذاق الجبن؟" وكانت تسأله في لهجة ماكرة.

وكأنما كان سؤالها إشارة طال ارتقاب القوم إياها، إذ انطلقت عاصفة من الضحك من كل مائدة.. كان الجميع يضحكون.. فكان العروسان الجديدان يضحكان بأدب، ولكن بانطلاق.. وكشفت ضحكات الانجليزيتين عن أسنانهما، وسط تجعدات وجهيهما، وخصلات شعرهما الأشيب.. أما الموظف الكهل نصف الأعمي فقد فغر فاه الأسود، الخالي من الأسنان، عن آخره، واضطجع في مقعده.. وراح "السنيور نيجريني" و"سانتينا" وأمها يضحكون من قلوبهم، ولكن في عطف وود.. ومع ذلك فإن "جانماريا" —الذي احتقن وجهه، وامتلأ فمه بالرغوة— ظل عاجزا عن إدراك جلية الأمر. فنظر إلى طبقة أولا، ثم إلى الوجوه الضاحكة، وقال: "أجل، ولكن.. ماذا جرى؟.. يبدو أنه صابون!".

فأجابت الفتاة وكأنها تطمئنه: "ماذا تعني؟.. صابون؟!.. لا، طبعا.. إنه جبن!".

وإذ ذاك، صاح السنيور نيجريني، في لهجته المألوفة، التي كانت تنم عن دراية وسلطان: "لا، بل هو صابون.. على أن كل مزاج طيب، لا يمكن أن يدوم طويلا. لست أنصحك بتناول مزيد منه، وإلا فلن يقدر لك البتة أن تقصي طعمه عن فمك!".

غير أن "جانماريا" لم يك يسمعه، إذ ثارت عليه أمعاؤه، وراح يلفظ في منديله لعابا مثقل بالرغوة، ثم ملأ كوبا بالماء، وأخذ يغسل فمه. وظل كل امرئ يضحك، بينما كأن الفتي يبصق الماء الممتزج بالصابون، وهو يتأجج –طيلة الوقت– غضبا وخزيا. ودار بخلده أن هذا –ولابد– كان السر في أن "سانتينا" قد آثرته بكل هذه النظرات والابتسامات الكثيرة!

وشغل عن مشاعره المضطربة، المثقلة بالغيظ والخزي، بصوت هادئ وادع، انبعث من المديرة التي غادرت مكانها –وراء المنضدة– في تلك الأثناء، وأقبلت نحوه، وهي تتساءل: "منذا الذي دبر هذا المزاح السخيف؟.. إنني جد آسفة يا "سنيور بارجيجلي"، فلا يسوءنك ما جرى!.. من الذي دبر هذه الأمزوحة؟.. أأنت يا أيدفيج؟".

وبصق "جانماريا" مزيدا من اللعاب الممتزج بالصابون، ثم رفع وجهه. وشرعت ايدفيج –الخادم– في الدفاع عن نفسها، أمام نظرات المديرة القاسية، وقد أحمر وجهها، وراحت تقاوم الخوف والرغبة في الضحك اللذين توزعاها: "الحقيقة هي أن الآنسة رينالدي هي التي أعطتني الجبن، وقالت أنها ستتحمل كافة العواقب.. فالذنب لم يكن ذنبي!".

ورأى "جانماريا" بصر المديرة يتجه نحو "سانتينا" في غضب مكبوت، فإذا الفتاة تعترف قائلة في لهجة ودية مرحة! "أجل، أنا التي أعطيتها الصابون.. لقد تقنا إلى شيء من المزاح.. إلى ما يضحكنا.. وأعتقد أن السنيور بارجيجلي لن يستاء من هذا.. فنحن نعيش في نزل واحد، على أية حال، فكأننا أسرة واحدة!".. والتفتت وهي تتكلم صوب "جانماريا"، ووجهت إليه نظرة عذبة، رقيقة، ظاهرها البراءة.. نظرة طردت من قلبه الغشيم كل غيظ وغضب لكرامته!

فقال، وهو يلفظ الصابون من فمه: "لست مستاء بالطبع.. ولكن، ما أبغضه من مذاق!.. ما أكره الصابون!" وعلق السنيور نيجريني على كلماته قائلا: "طبعا.. قد بدأ يفتر، فلما رأت المديرة تطور الأمور، عادت تعتذر إلى "جانماريا"، ووجهت إلى الخادم بضع كلمات قاسية، على سبيل التقريع، فازداد وجه الفتاة احمرارا، واشتد ضغط الضحك على صدرها.. ثم عبرت المديرة القاعة، وعادت إلى مكانها خلف المائدة، وراحت ترقب القاعة في وقار، وهي مشدودة القامة.

على أن "سانتينا" لم تقنع بالرد الذي غصب "جانماريا" نفسه على قوله، فقال بصوت ينضح بسلامة النية: "تعال وتناول فاكهتك معنا، لكي تثبت أنك غير مستاء.. أفسحي مكانا، يا أماه، للسنيور بارجيجلي، فسوف يأتي ليتناول فاكهته معنا!".

وتردد "جانماريا"، وهو لا يزال محتقن الوجه خجلا، وطعم الصابون في فمه.. بيد أن الدعوة الودية أغرته، فنهض فسار إلى مائدة المرأتين، وقد رفع رأسه ليخفي ارتباكه، كتلميذ دعي إلى منضدة أستاذ الفصل، فزادته نظرات زملائه الساخرة اضطرابا!.. وبدأن أن الجميع أقروا تصرفه.. وصفق السنيور نيجريني قائلا في تحبيذ "مرحي!.. هذه هي الروح!.. هذا هو الخلق!".

كانت أم "سانتينا" في الخمسين من عمرها.. وكان أبرز ما في شكلها، هو عدم التناسق بين رأسها الكبير، وجسمها القصير.. وعلى وجهها المنبسط القسمات، المترهل البشرة، تناثرت بقع غريبة الشكل، حمراء وبيضاء ووردية، وكأنما الغسيل الدائب لم يقو على محو الآثار اللاصقة المتخلفة عن تشرب بشرتها بمساحيق الزينة، ومع ذلك فقد ظل جفناها الكبيران، مشويين بنقاط سوداء صغيرة، قامت كشهود لا تنمحى لما كسا هذين الجفنين من مساحيق.

رحبت العجوز بجانماريا، ودعته إلى مقعد، وهي تخلع عليه ابتسامة عريضة، كشفت عن أسنان قلائل–غير ناصعة البياض– إلى جانب أسنان من ذهب أصفر تقادم عليه العهد. وقالت وهي ترمق ابنتها خلال عدستي منظارها بنظرة متوعدة: "لقد حاولت "سانتينا" أن تدبر أنزوحة عملية.. يا لها من فتاة شقية!.. أنني عاجزة عن ترويضها على النظام، فبينما تنهمك في عمل ما، تجدها مشغولة البال بالتفكير في مائة عمل آخر. ولكنك كما قال السنيور نيجريني قد أوتيت من الخلق مالا يجعلك تستاء.. قل لي، ما الذي أتى بك إلى روما، يا سنيور؟!.. هل جئت للدراسة؟".

أجاب جانماريا في استحياء، وهو يتناول ثمرة اليوسفي من سلة الفاكهة الصغيرة التي حملها معه من مائدته وينهمك في تقشيرها: "إنني أجتاز السنة الأولى في دراسة القانون".

– إذن، فأنت تعتزم أن تصبح محاميا؟

فأجاب في تحرج: "حسنا.. لا، في الواقع.. لسوف أغدو دبلوماسيا!.

– آه، إن الدبلوماسية مهنة بديعة.. لقد عرفت عددا من الدبلوماسيين.. وقد كان أحد أبناء عمومتي دبلوماسيا، وهو يحمل لقب "رينالدي" مثلنا.. ترى هل صادفته؟

– الحقيقة لا.. لم أصادفه!

وتدخلت ابنتها في الحديث متسائلة: "ماما.. ما الاسم الذي كان يحمله ذلك الشاب الذي التقينا به في (أوشيا) في العام الماضي؟ لقد كان دبلوماسيا هو الآخر.. أكان يدعى كوليوني؟".

فقالت الأم مصححة: "بل بييرليوني.. لعلك صادفته فهو شاب طويل،

أسمر، ذو لحية كلحية فاندايك!". واضطر "جانماريا" –وقد زايله بعد ارتياحه وانبساطه– إلى أن يقر آسفا بأنه لم يتعرف إلى هذا البييرليوني ذي اللحية، هو الآخر.. على أن جليد الكلفة لم يلبث أن تهشم، فأخذت الأم تحدثه في طلاقة–وبأسلوبها الذي كانت تصطنع فيه الترفع بدلال– ذاكرة أنها وابنتها من أهل روما أصلا، وأنهما لم تنزلا في "البنسيون" إلا منذ أشهر قلائل، وإن الطعام الذي يقدم النزلاء طيب، ولكن الغرف معتمة، غير مشمسة، كما أن أسرة النوم بشعة.. وأردفت مؤكدة أنهما تعتزمات الانتقال إلى "بنسيون" آخر.. وهكذا!

وكان "جانماريا" يلتهم قطع اليوسفي، ويحاول أن يرد على حديث الأم ما استطاع، وعيناه لا تبرحان وجه "سانتينا" فقد عاودته الرغبات المضطربة التي كانت تراوده منذ وهلة، وزادها حدة أن "سانتينا" التي لم تنبس قط ببنت شفة، وإنما ظلت تغض بصرها، وهي تكسر بعض ثمار البندق وتستخرجها من لحائها، راحت طيلة الوقت تضغط قدمه بطرف حذائها!.. ولقد أثار هذا الاتصال سربا من الأماني راح يحوم في ذهنه. فأيقن من النصر، ولكنه لم يستطع برغم ذلك أن يصدق خياله وهو يصور له جسد "سانتينا" النحيل الدافئ ملتصقا بجسده،تحت الأغطية الباردة، في سرير من أسرة "البنسيون" الضخمة، ذات الأزيز.

وكان أشد ماحيره من تصرفات الفتاة، هو ذلك الدور المزدوج الذي كتنت تؤديه بخبرة.. كان وجهها جامدا، لا ينم عن شئ، بينما بدت قدمها التي انهمكت في العبث، تحت المائدة كأداة للإثارة، لا قبل له بمقاومتها وكانت هذه –كما تبين– أول مغامرة غرامية في حياته، فأحس بنشوة، وكأنه جرع دفعة واحدة، كأسا من نبيذ معتق قوى، بعد صيام طويل!

وسمع "جانماريا" صوتا معسولا ينبعث من جواره، وكأنه ينساب من ضباب كثيف: "اسمح لي أن أقدم نفسي.. أن أسمى نيجريني". ورأى الشاب أمام عينيه

يدا سمراء، كثيفة الشعر، يحيط ببنصرها خاتم ذهبي ضخم ذو حجر ماسي.. وأسرع مجيبا: "وأنا أدعي براجيجلي".. وهب مستويا على قدميه، وصافح اليد الممتدة.. ومع ذلك، فإن مودة نيجريني لم تستهو "جانماريا" كما كانت تستهويه مودة أم "سانتينا"، لسبب لم يدر كنهه. وكانت لهذا "نيجريني" بشرة تميل إلى السمرة..

سمرة تمتزج فيها الصفرة بلون الزيتون.. لون أولئك الذين يعانون من أكبادهم. بينما كانت عيناه في اسوداد الفحم، يحيط بانسانيهما بياض مشوب بالحمرة.. أما رأسه فكان مستديرا أصلع، وكانت قسمات وجهه دقيقة مصقولة. كذلك لاحظ "جانماريا" أن أذنه كانت صغيرة الحجم، مستديرة، متناسقة الشكل، على هيئة "سرة" البطن.. وكان هذا التشبيه الأخير–بالذات– كفيلا بأن يملأ "جانماريا" بشعور قوي من التقزز، لم يكن له ما يبرره. وكان نيجريني ببشرته السمراء الضاربة إلى الخضرة يرتدي حلة ذات لون بني خفيف، مسوقا في ذلك بإحدى النزوات التي تشاهد في ذوق ذوي البشرات الملونة!

وجلس الرجل في غير تكلف، ثم أخرج من الجيب الخلفي لبنطلونه، علبة سجائر ذهبية طويلة، رفيعة، ضغط على زر بها فانفتحت، وقدمها إلى الثلاثة الذين كانوا يجلسون إلى المائدة، فتناولت كل من المرأتين سيجارة، وحذا "جانماريا" حذوهما. وما لبثت أم "سانتينا" أن التفت إلى القادم الجديد، وقالت: "لقد جاء الكونت براجيجلي إلى روما ليعد نفسه للدبلوماسية...". وأجفل "جانماريا"، فقد كان يتوقع مجاملة غير هذه، من أم "سانتينا".. أما "نيجريني"، فقد تلقي هذا النبأ في غير اكتراث، بل في برود عدائي، كما خيل للفتي. إذ أنه سرعان ما قال مصححا ما ذكرته السيدة، وهو ينفث الدخان من طاقتي أنفه، ويتأمل الحجرة بعينين متراخيتي الجفنين، باديتي الملل: "أو بالأحرى.. أنه يأمل

أن يمارس الدبلوماسية، فإن توفيقه في هذا مسألة أخرى!".

فتساءل جانماريا، وقد امتلأ بالحقد نحو غريمه ذي الكبد المعتلة: "ما الذي تعنيه؟". فأجاب الآخر في برود: "أعني أن الشبان الأذكياء الذين ينتمون إلى أسرات طيبة، على شاكلتك يا عزيزي براجيجلي، والذين يبادرك الواحد منهم –بمجرد أن يلتقي بك– قائلا: "لسوف أصبح دبلوماسيا".. هذا النمط من الشباب كثرة، تجدهم على كل شجرة. ولكن.. كم منهم يلتحق بهذه المهنة حقا، وكم منهم ينتهي إلى أن يكون مجرد موظف كتابي في إحدى الوزارات التافهة، ستمائة أو ثمانمائة ليرة في الشهر؟.... هذا هو الذي أقصده!".

فحملق "جانماريا" في "نيجريني"، وهو مأخوذ بمثل هذه السماجة غير المرتقبة، ثم قال في النهاية: "ولكني لم آت إلى روما لأصبح موظفا كتابيا، وإنما جئت لأشق طريقي إلى الوسط الدبلوماسي، وسأحرص على أن أصل إليه".

وقال الآخر في لهجة لاذعة: "أتمنى لك التوفيق من كل قلبي. ولكنك ولا ريب تدرك ما يلزمك لكي تنجح.. أليس كذلك؟.. أم أنك لم تؤت أية فكرة؟". فتساءل الفتي مأخوذا: "ماذا؟".

فقال نيجريني: "هذا".. وأشار بيده في حركة ذات معنى، وهو يفرك سبابة يده اليمني بإبهامها: "هل أوتيت هذا.. النقود.. هذا السلاح الدنس؟.. ذلك لأنه من الخير لك أن تتخلي عن فكرة الدبلوماسية لفورك. إذا لم يكن قد أوتيت مالا!".

وتضرج وجه "جانماريا" حنقا واستنكارا، وهز رأسه، وقال في تحرج كمن يشعر بأنه ما كان ينبغي أن يقول: "أننا أغنياء.. فنحن من أصحاب الأراضي، كما أننا نمتلك بيوتا في فلورنسا".

فهب نيجريني على قدميه فجأة، وقال ضاحكا: "في هذه الحال.. لا مجال لمزيد من القول، في هذا الصدد يا عزيزي الكونت براجيجلي.. لقد ختمت على شفتي بردك المفحم!.. لن أتفوه بكلمة آخرى!". وراح يكرر: "لن أتفوه بكلمة أخرى!"، وهو يدس يدا في أحد جيوب سرواله، وينفث الدخان من فمه، ويسير جيئة وذهابا أمام المائدة.

وهنا نهضت أم "سانتينا"، التي كانت قد لاذت بالصمت خلال المبارزة الشفهية بين "جانماريا" و"نيجريني"، ثم قالت بجفاء: "من الواضح، يا نيجريني، أنك لاتفقه ما تقول. فإن أغبي الناس يعرف أن آل براجيجلي من أغني أسرات (أريتسو). والآن، ما رأيكم في الانصراف؟.. يبدو أن كل امرئ قد انصرف".

واتخذوا طريقهم مغادرين قاعة الطعام، التي خلت من النزلاء.. وكانت أم "سانتينا" في المقدمة مع "نيجريني"، الذي لم ينفك عن التهامس معها.. وتبعهما "جانماريا" و"سانتينا" على أنهم لم يكادوا يبلغون الباب، حتى تعمدت "سانتينا" أن تجذب "جانماريا" إلى الخلف، وهي تلقي نظرة حذرة نحو الردهة المعتمة التي كانت أمها ونيجريني يسيران فيها في خطي بطيئة، وهمست في لهجة مفعمة بالغموض: "تعال لحظة إلى غرفتي، فإني أود أن أعطيك شيئا!".

ولم يسع "جانماريا" في غمرة اضطرابه العاطفي سوى أن يطرق برأسه موافقا، وإذ ذاك رمقته الفتاة بنظرة أخرى، حافلة بالإغراء، ثم هزت ثوبها فأرسل حولها حفيفا، وتقدمته إلى الردهة. وكانت أمها ونيجريني قد غابا عن الأنظار.. ومن قاعة الجلوس، كانت ثمة موسيقى راقصة تنبعث من المذياع. وانطلقت "سانتينا" تتقدم الفتي، وهي تلتفت من آن إلى لآخر، رافعة سبابتها إلى شفتيها محذرة، وقادته إلى غرفتها، ثم ألقت نظرة خلفها –من قبيل الاحتراس– وفتحت الباب، وجذبت "جانماريا" إلى الظلام.. وقالت في صوت

خافت، وهي تضئ المصباح الأوسط: "لو اكتشفت أمي الأمر، لثار غضبها!". وكانت الغرفة على الحال التي رآها "جانماريا" عليه من قبل. وشعر الفتي بموجة عابرة من الاضطراب الحائر، إذ لمح الجوارب والأقمصة المتهدلة على الحاجز. ثم سار –بحركة آلية– إلى المنضدة، وتناول كتابا كان عليها.. كتابا مثني الأطراف، ذا غلاف لامع.. قصة بوليسية!

وكانت "سانتينا" قد اختفت وراء الحاجز، إذ دلفت إلى الشطر الآخر من الحجرة. ثم لم تلبث أن عادت وفي يدها إحدى زهور "الجاردينيا"، وقالت بصوتها الأجش، وهي تقترب من "جانماريا" في لهفة: "لقد تلقيت سلة من هذه الزهور، من شاب مزعج يحوم حولي.. على أنني أحب أن تأخذ هذه، لأشعر أنك لم تعد مستاء من مزحة الصابون، لا سيما وأنني أميل إليك، في حين أنني لا أطيق ذلك الشاب الآخر. لا، مهلا.. لسوف أثبتها بنفسي في عروة سترتك!" وبدون أن تكف عن الثرثرة، وقفت على أصابع قدميها، ودفعت الزهرة في عروة سترة "جانماريا". ومالت بكل جسمها نحو جسم الفتي، فتصاعد إلى أنفه عبير قوى من رائحة عرقها وأريج اللحم المعطر.. واستولى على حواسه، كما استهواه قرب بدنها من بدنه، فندت منه حركة من تلك الحركات التي تنبعث عن السعادة من ناحية وعن الذعر، من ناحية أخرى.. تلك الحركات التي تصدر تلقائيا أثناء النوبات التي تلم بالمرء أحيانا، وهو نائم، فتجعله يصرخ أو يحرك أطرافه بقوة.. ورفع ذراعه، ثم شدها حول الخصر النحيل، البادي العظام، فجذب الفتاة حتى ألصقها به. وازدادت هي به التصاقا ثم رفعت رأسها، كالمأخوذة بنشوة حالمة، وطوقت عنقه بذراعيها.. وغابا في قبلة!

وما إن افترقا، حتى دفعته الفتاة عنها، وطوفت ببصرها في الحجرة،

وقالت: " يا إلهي! ما الذي فعلته؟.. إن أمي قادمة.. لو أن أمي اكتشفت الأمر!".

ورفعت يدها إلى جبينه، وقالت وهي تدفعه إلى خارج الحجرة: "أسرع بالخروج".. ورددت بصوت خافت، وهي تخرج وراءه إلى الردهة، مغلقة الباب: "أسرع، وفارقني!". و "جانماريا" لم يفقه لانفعالها سببا، فهتف في رجاء: "لا أحد هناك.. لنعد إلى غرفتك لحظة.. لحظة واحدة فقط..."!

وظلا يتجادلان همسا، في الردهة المعتمة، وقد التصق كل منهما بالآخر، وهما يحرصان على أن لا تصدر عنهما أية حركة. ثم بدا الجد على محياها، ورفعت إصبعا إلى شفتيها محذرة، وقد لاح عليها أنها تفكر؟ وما لبثت أن قالت في النهاية: "أصغ إلى!.. إن عودتنا إلى الحجرة مستحيلة، إذ أن أمي قد تأتي، اسمع، لسوف أذهب مع أمي ونيجريني إلى حفلة راقصة.. غير أنني سأوافيك في حجرتك لدقيقة، عندما أعود. أيرضيك هذا؟ فتذكر أن تترك باب حجرتك مواربا، حتى أستطيع أن أتسلل دون أن أحدث أي صوت. هل اتفقنا؟"

وقبل أن يفيق "جانماريا" من ذهوله، كانت قد هرعت مبتعدة، ودارت مع انعراج الردهة، فغابت عن نظره! أحس جانماريا بمجرد أن غابت "سانتينا" عن بصره أن التفكير في الساعتين أو الثلاث، التي كانت تفصل بينه وبين موعد عودتها، قد راح يهاجمه فجأة، فيحطم صبره في عنف، حتى لقد شعر بأنه لن يقوي على الصمود للوعة الانتظار طيلة هذه الفترة.

وقال لنفسه، وهو يمضي في الردهة: "ليتني أستطيع أن أكف عن التفكير، وأحظى بالنوم فلا أستيقظ إلا في لحظة دخول سانتينا إلى غرفتي". ثم أردف: "ولكن هذا مجرد كلام.. ترى ما الذي أملك أن أفعله، لأقتل الوقت؟". وران عليه صمت الليل الناعس، ولم يبد تحت ضوئه الخافت سوى مشجب

المعاطف، وقد خلا من حمله. وهم بأن يعود إلى حجرته، لولا أن استرعى انتباهه باب مغلق، كتبت عليه كلمة "المكتب"، فهتف لنفسه: "هذه فكرة طيبة.. لقد تلقيت اليوم قائمة حساب النزل، فلأدخل لأدفع المبلغ". وخطر له أن الساعات الأليمة قد تمضي سراعا، إذا استطاع أن يشغل نفسه بعدد من المهام البسيطة. لذلك أخرج قائمة الحساب، من جيبه، وطرق الباب. فأتاه صوت عذب، يجيب في نغمة كأنهما الشدو: "ادخل!" ودفع الباب، وولج الحجرة!.

كانت الحجرة صغيرة منخفضة السقف على النقيض من حجرات النزل الأخرى، كانت النافذة تتوارى خلف ستائر بهيجة الشكل، وقد قامت في أحد الأركان أريكة ذات كساء مزين بالورود، تناثرت عليها وسائد زاهية الألوان.. وكانت ثمة مقاعد مريحة حول المدفأة التي بدت فيها بقايا كتل من الخشب المتقد، وقد بدأت تتحول إلى رماد.. وكانت المديرة تجلس إلى مكتب بجوار المدفأة، مولية ظهرها شطر الباب. وشعر "جانماريا" وهو يقف ممسكا بقائمة الحساب بشعور من الارتياح، مازجه شعور بالتطفل والاقتحام، وكأنه يشق طريقه إلى مكان خاص لا يجوز للأغراب أن يطأوه.. وما أن خطا خطوتين، فوق البساط الوثير، حتى ألفي نفسه إلى جوار المرأة، وكانت تجلس على مقعد منخفض، بلا مسند، لم يكد يتسع لردفيها، وقد استقرت أمامها على القماش الأخضر الذي كان يكسو المكتب أدوات الكتابة، في تنسيق وعناية.. وكانت المرأة تقرأ في كتاب، استقر على غلاف من المشمع الأسود، وقد استقرت على حافة منفضة السجاير، سيجارة أو قدت لتوها.

وشرع يقول في استحياء: "إنما جئت.. لأدفع حسابي.." وكانت المرأة قد استدارت، عند دخوله. وبينما كان يمد إليها قائمة الحساب، ازدادت استدارة حتى أصبحت تواجهه، وغدا في وسعه أن يبصر العيب الوحيد في وجهها

الشاحب، المتناسق القسمات.. أن يبصر الأنف الضخم، البارز، وأن صيغ على شكل يوحي بالنبل، وتناولت منه الورقة مبتسمة، وهي تقول: "ولكن.. ليس ثمة داع للعجلة، فأنت لم تقض هنا سوي أسبوع واحد.. لا تمكث واقفا، بل اجلس".

وجلس جانماريا على الأريكة المنخفضة، وهو محرج. وجال بخاطره أنها من تلك الأرائك التي يمكن تحويلها إلى سرير؟ فلما رأى لمديرة تحني رأسها الجميل، ذا الشعر الأسود، على قائمة الحساب، لتراجع أرقامها وهي ممسكة بقلم من الرصاص لم يتمالك أن يتمثل في خياله هذه المرأة، عندما تتأهب لكي تندس في فراشها في تلك الحجرة الدافئة، وقد نضت عنها ثيابها، فبدا جسمها البض عاريا.. على أنه لم ير في هذه الخواطر سوى جموح من نتاج الفضول المجرد، نظرا لما كانت توحيه إليه شخصية المرأة من عفة. وما إن فرغت المديرة من مراجعة الحساب، حتى فتحت أحد أدراج مكتبها، وأخرجت خاتما طبعت به كلمة "دفعت القيمة" على القائمة. وكان "جانماريا" يراقبها بالرغم من تخيلاته، فأخرج حافظة نقوده من جيبه، وتناول منها ورقة مالية من فئة الخمسماية ليرة. فرفعتها نحو النور لتفحصها بنظرة سريعة، ثم فتحت درجا آخر تناولت منه بضع ورقات مالية من فئات صغيرة، وكيسا مليئا بالعملة الفضية، فتحته وتناولت منه بعض القطع، فدفعت بها إلى "جانماريا". وقالت له: "هاك بقية المبلغ يا سنيور براجيجلي.. وهذه قائمة الحساب.. على أنني أكرر لك أنه لم يكن ثمة ما يدعوك إلى هذا التعجل في الدفع".

وصدرت عباراتها في لهجة أوحت إليه بأنها إنما كانت تريد أن تقول: "لست أتعجلك في الانصراف. فإذا شئت أن تقضي بعض الوقت في الحديث، فعلى الرحب والسعة.." أو هذا ما خيل لجانماريا، ولم يكن حريصا على صحبة

المديرة، ولكنه رحب بهذه الدعوة المستترة، إذ فكر في الساعات التي كان مضطرا أن يحتملها في انتظار عودة "سانتينا" لذلك مكث في جلسته، ملتمسا لنفسه العذر، ذاكرا وحشة الوحدة. ثم سأل المرأة عما إذا كان من المرتقب أن يستقبل النزل ضيوفا جددا. فاستدارت في جلستها حتى باتت تواجهه تماما، ووضعت إحدى ساقيها القويتين على الأخرى، ثم رفعت منديلا صغيرا إلى أنفها الكبير. فتمخطت في رفق ودون صوت، وكأنه آسفة لاضطرارها إلى ذلك.. ثم أجابت عن سؤاله، بأن حظ "البنسيون" في ذلك العام لم يكن كحظه في سابقه الذي امتاز بحفلات العيد الفضي. التي اجتذبت إلى روما خلقا كثيرا، فكان النزل مزدحما باستمرار.

ولم تلبث المديرة، إن تساءلت: "وما الذي تعتزمه أنت يا سنيور براجيجلي؟.. هل تنتوى الإقامة معنا زمنا؟" وسرت في أطراف الفتى رعشة لم يملك لها دفعا، إذ تمثلت لعيني خاطره فجأة، صورة وجه "سانتينا" —الطافح بالشهوة– وهو يتطاول نحوه، مقربا إلى شفتيه.. ولكن المديرة أخطأت فهم هذه الرعشة الشبقة، وظنتها صادرة عن شعور بالبرد، فسعت إلى المدفأة، وركعت على البساط في هدوء.. وبجلال لا يباري، مضت —وهي سادرة في الكلام– تقلب الجمرات نصف الخابية، وتطعم اللهب بعض الأعواد الرفيعة لتذكي وقدته. ثم نهضت وسألته :

– وأين تقيم أسرتك يا سنيور براجيجلي؟

– إن والدي ميت.. أما أمي وأخوتي، فيقيمون في (أريتسو).

وقالت وهي تجلس ثانية على مقعدها المنخفض، المجرد من المسند: "آه، إذن فوالدك قد مات؟.. إنني آسفة من أجلك، ولكني أشد رثاء لأمك المسكينة، التي خلفها، وهي بعد شابة، تحمل عبء أطفال تعني بتربيتهم، أنت

أكبر أولادها؟".

فأجاب: "أجل".

وتأملته لحظة دون أن تتفوه بكلمة، ثم قالت في أسى، وهي تهز رأسها: "ليس في وسع أحد منا أن يقدر مدى الحزن الذي تستشعره أمك لبعدك عنها".

وشعر "جانماريا" باضطراب، فلم يدر كيف يجيب. بيد أن صورة "سانتينا" عادت تطفو أمام عينيه، فارتجف مرة أخرى، بالرغم منه. ولاحظت المديرة ارتجافه في هذه المرة أيضًا، فقالت: "لابد أنك متوعك". وبحركة جد طبيعية وعادية، نهضت فوضعت يدها الطويلة الرقيقة الرطبة على جبينه، وهي تقول: "معذرة إذ أضع يدي على جبينك.. ولكنك مرتفع الحرارة؟!". وأحس أن حرارته كانت مرتفعة فعلا، كأنما نبهته برودة يد المرأة إلى النار المضطرمة في جوفه! سارت المرأة في هدوء إلى المكتب، ففتحت أحد أدراجه، وأخرجت مقياسا للحرارة "تيرمومتر"، وشرعت تهزه. وما إن وقع بصر "جانماريا" على "الترمومتر"، حتى شعر بأن قلقها الأموي وسخونته المحمومة ليسا سوى وهم، فبادر إلى النهوض قائلا: "لا، أبدا.. لا تجشمي نفسك عناء قياس حرارتي. قد أكون متعكر المزاج بعض الشئ، ولكن حالي لا ترقى إلى درجة المرض.. وقد يكون من الخير لي أن آوى إلى فراشي، فأستغرق في النوم.. إنني أوقن من أن هذا كفيل بأن يردني إلى حالي الطبيعية".

وجمدت المديرة في مكانها، وهي ممسكة بمقياس الحرارة، وراحت تنظر إليه، وقد انعكست على عينيها السوداوين مظاهر خيبة الرجاء، وقالت: " أجل، يحسن بك أن تأوي إلى فراشك فعلا. وإذا لم يكن في هذا ما يضايقك، فسوف آتيك بعد نصف ساعة، لأحضر لك كوبا من عصير الليمون الدافئ. وتستطيع

إذ ذاك أن تنبئني بأي شيء تكون راغبا فيه!".

وتسلل "جانماريا" في ارتباك، نحو الباب، وهو يقول: "أشكرك كثيرا". وبين الشكر والانحناء، وجد نفسه خارج الغرفة الصغيرة الدافئة فدلف إلى البهو الفسيح البارد!.. وإذ ذاك، قال لنفسه: "يا للسماء!.. يا لها من مضايقة مملة!". وبلغ غرفته، وهو مثقل الأطراف، فأوصد بابها خلفه، وتنهد بارتياح، قائلا: "إنها امرأة طيبة، ولكنها مسرفة في عطفها.. كأني بها كانت على استعداد لأن تخلع عني ثيابي، وتدسني في فراشي، كما لو أنني كنت طفلا!". وشعر بارتياح إذ تخلص من إشفاقها، وإن أحس بلذغة من الندم، لأنه بعد أن فارقها لم يعد يدرى كيف يقضي الساعتين اللتين كانتا لا تزالان تفصلان بينه وبين منتصف الليل.

وتولاه شعور حاد بنفاذ الصبر، فشرع يذرع غرفته. ثم وقع بصره على سجل برنامجه الدراسي، وقد تناثر على الأرض بالقرب من الأريكة، فطافت بذهنه فكرة أحسن لها بمرارة.. فكرة قضاء الوقت في استذكار "مدخل القانون الدولي" وجمع الأوراق، واستلقى على الأريكة، ثم شرع في القراءة. غير أنه لم يفقه كلمة واحدة، ووجد نفسه مضطرا إلى أن يعيد قراءة كل عبارة مرات ومرات، حتى يتبين معناها.. فقد كانت صورة "سانتينا" تقفز أمام عينيه باستمرار.

وبعد أن قضي حوالي نصف ساعة في هذا الاستذكار العجيب، نبهه صرير انبعث من خلفه، إلى أن الباب كان يفتح!وقال لنفسه: "لابد أن المديرة قد أقبلت تحمل عصير الليمون الدافئ".. وشعر بضيق، فأشعل سيجارة، دون أن يرفع عينيه عن الأوراق، ودون أن يتحرك من اضطجاعته. على أنه بدلا من أن يرى قوام المديرة الطويل، المسربل بالسواد، أحس بيدين تغطيان عينيه، وسمع

صوتا أجش، يقول: "خمن.. من أكون؟". وهتف : "سانتينا".. وراحت عروقه تنتفض، ثم ألقي سيجارته، وقفز منتصبا على قدميه، فإذا "سانتينا" تقف أمامه، وقد انحنى جسمها النحيل إلى الوراء، وهي تقهقه!

وقالت: "يجب أن تعترف بأنك لم تتوقع أن أعود بمثل هذه السرعة.. أليس كذلك يا عزيزي؟". ثم اصطنعت شيئا من الجد: "قلت لماما أنني متوعكة المزاج، وسألت صديقا أن يرافقني إلى هنا.. هو الشاب الذي ذكرت لك أنه أهداني زهور "الجاردينيا".. وكم عانيت للتخلص من صحبته!.. لم يصدق أنني متوعكة، فشاء أن يفرض نفسه، وأن يدخل النزل معي.. يا له من وحش صغير!". ولكن "جانماريا" كف عن الإنصات لها، وطوق خصرها بذراعه، وحاول أن يحملها على الجلوس على الأريكة.. بينما كانت تهيب به، وهي ترمق الباب بنظرات خائفة: "ليس بهذه السرعة".. ثم انصاعت له فجلست، وتركته يطبع على شفتيها قبلة.. وكانت قبلة طويلة، ثم انحدر بشفتيه إلى عنقها.. ثم شرع ينحي الشريط الذي كان يحيط بكتفيها، مثبتا ثوبها. ولكن الفتاة تحولت فجأة فراحت تقاوم، واستطاعت أن تدفعه عنها، ثم قالت في صوت متهدج، متقطع: "لا، لا.. من الخير ألا نفعل!".. وتمالكت أنفاسها، لتمضي قائلة: "إنك لست على شاكلة الآخرين. إنك تختلف عنهم، وإني لموقنة من هذا. لا، لا أستطيع محال!". فتراجع "جانماريا"، وأخذ يحملق فيها، وقد استولت عليه دهشة حائرة.

– ماذا تعنين؟.. ما الذي دهاك؟..

– لو أنك عرفت السبب، لما نظرت إلى وجهي ثانية قط! وما إن فاهت بهذه الكلمات، حتى دفنت وجهها في راحتيها وراحت تهز رأسها، وهي تقول في أنين:

-لا أستطيع.. لا أستطيع!.

- وما الذي لا تستطيعينه؟

- ليس بوسعي أن أجيبك.. لا أستطيع!

وفجأة، وأمسك "جانماريا" بذراعها بقوة، ثم هزها بعنف، وهو يقول: _ ما المسألة؟ وما هذا الذي لا تستطيعين أن تقوليه؟".

- لا أستطيع! لا أستطيع.. دعني.. لا أستطيع!

فقال وهو يهزها بعنف أشد: "بل لابد من أن تجيبي، وفي الحال!". وعلى حين غرة، بدت الفتاة وكأنها استيقظت لتوها من كابوس، ولم تسيطر بعد على حواسها فقد سكتت، وسكنت، وتولاها الوجوم، وراحت تطيل التحديق في "جانماريا".. وما لبثت أن قالت في النهاية وهي مترددة: "ولكنك ستكرهني إذا ما صارحتك".

فقال "جانماريا" مطمئنا، وهو يضع يده على قلبه:

- لن أكرهك، مهما يكن الأمر!.

وعاودت أنينها، وهي تقول:

- ولكنني أدرك أنك ستكرهني .

- ولكنني وعدتك!

وكانا يجلسان على الأريكة جنبا إلى جنب، وثوب "سانتينا" الذي كان طويلا، واسعا، يغطي ساق "جانماريا" اليسرى، ثم يتهدل على الأرض. أما قدماها فكانتا مستقرتين على الأوراق المتناثرة على الأرض. وفي اللحظة التي كان "جانماريا" يحاول فيها جاهدا أن يحتوى الفتاة بين ذراعيه، وفي اللحظة التي

كانت فيها شفتاه توشكان أن تلتقيا بشفتيها، إذا بطرقتين على الباب. فانتزعت "سانتينا" نفسها من ذراعيه بسرعة، وقفزن واقفة، وهتفت: "أنها أمي.. لسوف تكتشف أمرى، لقد ضاع كل أمل!". وراحت تثب في الغرفة، وكأنما أصيبت بمس من الخبل. ولكن "جانماريا" تذكر وعد مديرة المنزل، فهمس يطمئنها: "إها ليست أمك، وإنما مديرة المنزل".

– وماذا عساها تبغي.. هذه المرأة الفظيعة الظل؟!.

وأسرع "جانماريا"، ففتح بأبي صوان الثياب الضخم، الخاوي، وقال في لهجة آمرة: "ادخلي هنا!".. وترددت "سانتينا".. وودت أن تحتج ولكن "جانماريا" بدا حازما، فرفعها من تحت إبطيها، ودفع بجسدها إلى داخل الصوان، ثم أغلق الباب، وأدار المفتاح. ثم سار إلى باب الحجرة ففتحه!

و كانت القادمة هي المديرة، وقد حملت في يدها كوب ملئ بعصير الليمون.

ودخلت، ووضعت الكوب على المنضدة المجاورة للسرير.. ووقفت بجانب السرير، وسألته: "أفأنت بحاجة إلى شيء آخر؟".. ولم تكن تنظر إليه، وإنما راح بصرها يطوف بالحجرة. وتتبع "جانماريا" النظرة الوادعة، التي انسابت من عينيها، ففطن إلى أنها تحوم بإصرار حول الأريكة. ومن ثم، فقد راح ينظر في ذلك الاتجاه، وإذا به يلمح وشاح "سانتينا" الوردي الصغير، وقد ترك على الأوراق المبعثرة على الأرض. وأحمر وجهه، وهو يقول لنفسه في السر: "يا للنكبة!". ولم يدر إلى أين يوجه بصره، وهو يقول مجيبا عن سؤال المديرة: "لا.. لست بحاجة إلى شيء، فشكرا!".

ولم تبد المرأة ما ينم عن أنها لاحظت وجود الوشاح، بل تحولت نحو

السرير، وهي تتساءل: "ألديك أغطية كافية؟" وبدون أن تنحني، راحت تتلمس بيديها ما بين أغطية الفراش، وكأنها تحصيها وتتعرف سمكها!.

– أجل.. إنها أكثر مما أحتاج.. شكرا لك فقالت: "إذن، فعم المساء!". وبنفس البساطة التي اتسم بها قدومها، مرت بجانب الفتي المرتبك، وغادرت الحجرة، وما إن أغلق الباب، حتى انبعثت جلبة وحفيف ثوب حريري، من صوان الملابس، فجرى "جانماريا" نحوه. على أنه لم يكد يلمسه حتى اندفع الباب من الداخل مفتوحا، وسقطت "سانتينا" على الفتي. وود "جانماريا" أن ينتهز هذه الفرصة ليقبل الفتاة، ويجرها إلى السرير، ولكن "سانتينا" دفعته عنها، وسألته في غلظة: "ما الذي كانت تبتغيه ذات الأنف الضخم في غرفتك؟".

وحركت الغيرة التي تبدت في لهجتها غروره، فقال وهو يشير إلى الكوب: " أحضرت لي بعضا من عصير الليمون". فقال بخشونة: "بل جاءت لكي ترى ما إذا كنت وحيدا ".

ولم تعد إلى الأريكة، بل دارت في أرجاء الحجرة لفترة، ثم جلست على حافة السرير، وقالت: "تصور أنني هنا في غرفتك، وفي هذا الوقت ومع ذلك فأنا لا أعرف عنك شئيا.. ولا اسمك..".

وأخذت تعبث بثنايا ثوبها، وقد غضت بصرها. فذكر لها "جانماريا" اسمه، ثم حاول أن يقبلها، وقد شجعته عودتها إلى اللطف. وتركته "سانتينا" يقبلها في هذه المرة، وإن لم تستجب لمغازلاته، بل بدت وكأنها فاقدة الحس وانفرجت شفتاها، واسترخي جفناها في شبه إغماض..

وكانت كلما جذبها "جانماريا" إليه تتهالك في استرخاء.. وإذا قوم رأسها الذي كان يرتمي إلى الوراء ارتمت على صدره في وهن.. وإذا حاول أن يضع

إحدى ذراعيها حول عنقه، انزلقت الذراع وكأنها مفقودة الحياة.. أجل، لم يبدو عليها من مظاهر الحياة سوى أنات وزفرات، كانت تصعدها بين وقت وآخر.. ومع ذلك، فإنه لم يكد يحاول من جديد أن يزيح إحدى حمالتي ثوبها عن كتفها، حتى استيقظت، ودفعته عنها، وعادت تقول: "لا، لا.. هذا مستحيل.. مستحيل!". ثم ارتمت على جانب من الفراش، ودفنت وجهها، وأخذت تطلق أصواتا محزونة لاهثة، تجمع بين الحشرجة والبكاء.

وبلغ صبر "جانماريا" قد بلغ نهايته، فشعر برغبة قوية في أن ينهال ضربا على ردفها الذي أبرزه الوضع الذي كانت عليه تحت أطواء ثوبها. على أنه غالب نفسه، وحاول أن يرفعها بكل ما أوتي من رقة. بيد أن جهوده كانت خليقة بأن تذهب هباء، أو لم تغير "سانتينا" من وضعها فجأة، فاستوت على الفراش جالسة، بحركة سريعة، وسألته: "أفتعرف من أنا؟".

– أجل.. سانتينا رينالدي.. أليس هذا اسمك؟

فقالت، وقد تولتها صراحة جامحة: "أجل، هذا هو اسمى.. ولكن المرأة التي معي ليست أمي، ولا تحمل اسم "رينالدي".. إنما تدعي أيدا كوكاناري!".

فتساءل جانماريا، وهو يتخبط في حيرة: "ما الذي تعنينه؟".

وأجابت في بساطة: "أعني أن هذه المرأة "كوكاناري" مجرد صديقة لي.. وأنها ونيجريني يستخدمانني للحصول على المال..".

– الحصول على المال؟!

واشتد انفعال سانتينا وهياجها، وهي تقول: "أجل، ألست تفهمني؟.. لجمع المال!.. على أنني لم أعد أطيق هذا.. لم أعد أطيقه إطلاقا، ولست أريد أن أستمر فيه!".

– ولكن.. كيف تراهما يستخدمانك في جمع المال؟

ونظرت إليه برهة، وهي في ريب من أمره، ثم اندفعت تشرح له قصدها في إسهاب!

– عندما يكون ثمة شخص مثلك.. أو عندما يكون ثمة رجل ميسور الحال مثلا يعيش وحيدا، وقد بدأ بتقدم في السن، أسعى إلى التعرف به، وأعمل على إيقاعه في هواي. ثم أقول له على سبيل المثال أنني مدينة، أو أن علي أن أدفع حسابا ما، أو أنني في حاجة إلى رداء.. فلا يلبث هذا الشخص أن يعطيني نقودا، أقتسمها مع المرأة "كوكاناري" و"نيجريني".

وأشارت بيدها في ازدراء، وهي تردف قائلة: "ولست أدعهم يمسون شعرة واحدة من رأسي، طبعا.. ولكن الرجال جميعا سواء، لا يكفون أبدا عن الرجاء، فأعشمهم وأمنيهم.. ثم نرحل عن

"البنسيون" ذات يوم، إلى "بنسيون" آخر، في مدينة أخرى، وتبدأ العملية من جديد.. وإلى جانب هذا، فإن نيجريني بارع في لعب الورق، وهو يكسب من براعته بعض المال...".

ولم يستبشع "جانماريا" هذا الأمر، بقدر ما ذهل لهذه التجربة الجديدة بالنسبة له، فقال أخيرا، في سذاجة: "ولكن هذا نوع من الغش والخداع!".

وهزت الفتاة كتفيها، وهي تقول: "سمة ما شئت، فليس للاسم قيمة" ثم دست يديها في شعرها، وراحت تهز رأسها في قنوط، وكأنما اعتصر اعترافها كل ما داخلها من جرأة.. وعادت تقول في أنين حزين: "وها هما يريد أنني على أن أفعل بك الشئ ذاته. ولكنني غير راغبة في ذلك.. لا أريد!.. إنك على النقيض من الآخرين جميعا. ثم إنني مللت.. لم أعد راغبة في أن أستمر في فعل ذلك..

أنني أكرهما، ثم انك أفضل منهما كثيرا. أواه، ما أشقاني.. يا للتعاسة!".

واختلج جسدها.. وتظاهرت بأنها توشك أن تمزق شعرها، ثم أسندت وجهها إلى راحتيها، وراحت تتفرس في عيني جانماريا.. وما لبثت أن قالت: "لابد أنك الآن كرهتني، أليس كذلك؟.. إنك تكرهني، مع أنك الشخص الوحيد في الدنيا، الذي كان يملك أن يساعدني".

ولكنها كانت مخطئة، فإن "جانماريا" لم يكرهها.. بل إنه أحس لأول مرة في حياته بشعور جديد عليه. شعور لا يشبه الكراهية التي كانت تخشاها ولا يشبه الشهوة البدنية التي خامرته من قبل نحوها.. كان شعور الإشفاق القوى، وقال لنفسه وهو يتأملها: "يا لك من مسكينة يا سانتينا!.. فتاة يدفعها إلى طريق الرذيلة الشيطانان "كوكاناري" و"نيجريني"..

ولقد ود أن يقول لها ذلك بصوت عال، وأن يطمئنها، ولكن كل ما أستطاعه هو أن تناول يديها، فأقصاهما في رفق عن وجهها، وقال: " ما الذي يوحي إليك بأنني أكرهك؟.. لست أكرهك، وإنما أنا أكثر ولعا بك من ذي قبل!".

وغضت "سانتينا" بصرها، وكأنما ارتكبت لهذا الكرم الذي لم تكن تستحقه.. واختلج فمها في انفعال، وكأنها تقاوم البكاء، ثم شرعت تقول: "ولكنني ظننت...".

فقاطعها جانماريا مستأنفا حديثه، وقد جاشت عواطفه، وراحت شفتاه تمحوان المسحايق عن وجهها: "لست أكرهك.. ولكي أثبت لك هذا، أؤكد لك أنني على استعداد لأن أفعل كل شئ لكي أنتزعك من مخالب تلك المرأة وذاك الرجل "نيجريني"، الذي أصارحك بأنني كرهته مذ وقعت عليه عيناى!".

وتطلعت إليه سانتينا في إكبار وعرفان، وقالت: "ما أطيب قلبك.. لقد كنت موقنة من أنك طيب، ومن أن بوسعي أن أعتمد عليك!". وندت عن "جانماريا" حركة مستحيية، وكأنه يقول: "دعك من إطراء خصالي الآن، وتعالى نتحدث في أمرك". وترددت الفتاة لحظة، ثم قالت أخيرا: "إذن، فلي أن أعول عليك!".

– لك هذا بكل تأكيد.. اعتمدي على في كل ماترين بوسعي أن أفعله!

ولاح أنها لا تكاد تحمل نفسها على أن تصدق أن الحظ كان يواتيها، فأخذت ترسل البصر أمامها، إلى غير هدف، وتهز رأسها بين حين وآخر، وما لبثت أن قالت بعد برهة: "ليتك تعرف!.. ليتك تعرف مدى الأثر الذي يشعر به المرء إذ يلتقي بشخص أوتى مثل كرم نفسك.. كرمك البالغ.." وأمسكت عن الكلام، وشدت على يديه، وهي تتفرس في عينيه بنظرات حائرة، وتساءلت: "أذن" فلو أنني أنبأتك يا عزيزي، بأن في وسعك أن تساعدين، وأرشدتك إلى طريق المساعدة، فهل تقدمها". فهز "جانماريا" رأسه، وهو يقول: "إن أشد ما يدهشني هو أنك لا تزالين في ريب، برغم كل ما قلته لك!".

وقالت سانتينا: "الحق أنني لا أكاد أصدق هذا..". ثم أمسكت عن الكلام، وعادت إلى الصمت الطويل. وما لبث أن انبعثت دقات الساعة من كنيسة قديمة، كانت قبتها وبرجها يقومان خلف النزل. وانصت الفتى والفتاة إلى الدقات، وهما جالسان جنبا إلى جنب على السرير، في الغرفة الكئيبة المعتمة حتى أحصياها أثنتي عشرة دقة بطيئة ممتلئة الرنين، أعقبتها انقضي بعد انتصاف الليل، فقفزت الفتاة واقفة، وقد تولاها الانفعال، وهتفت في جزع: "لقد تأخر الوقت.. كان ينبغي أن أنصرف منذ زمن!".

وانحنى "جانماريا" فالتقط الوشاح الوردي، وألقاه على كتفيها، وهو يقول: "ولكن.. ألن تذكري لي كيف يتأتي لي أن أساعدك؟". فأجابت في عجلة: "غدا،

فالساعة الآن جد متأخرة.. ثم أنني يجب ألا أشعرهما بأنني كلفة بك، وألا أزج بك في المأزق الذي يتوقعانه ويرجوانه!".

وأقر "جانماريا" رأيها قائلا: "هذا صحيح.. إذن، فسألقاك غدا!" وحاول أن يطوقها بذراعه، فإذا به يشعر بيديها تمتدان أمامها فجأة، لتصداه عنها.. ولاح له الأمر طبيعيا، على ضوء علاقتهما الجديدة البريئة، فتحول بالقبلة التي كان يريد أن يطبعها على شفتيها، وطبعها على جبينها الضيق، وهو يغمغم: "إلى غد يا عزيزتي".. وابتعد عنها، فتمتمت: "أنعم بنوم هادئ".. ثم اتجهت صوب الباب، بخطى سريعة، لا تكاد تبدو لتواري قدميها تحت ذيل الثوب الطويل. والتفت إليه عندما بلغت الباب فأرسلت إليه قبلة على أطراف أصابعها، ثم غابت عن عينيه.

ظل "جانماريا" جالسا لفترة طويلة عقب انصراف "سانتينا على حافة السرير، وهو يهز ساقيه، وقد غض بصره.. وكان يظن أنه بذلك يفكر فيما مر به، تفكيرا عميقا، ولكن عقله كان، في الواقع، خواء، ذلك لأنه كان متعبا.. كما أنه لم يكن يتوقع التحول الغريب الذي تطورت إليه الأحداث، والذي أذهله وحيره. وانتفض أخيرا، وانتزع نفسه من جموده، فخلع ثيابه، واندس في الفراش الكبير، بين الأغطية الدافئة، فإذا به يغيب لتوه في نعاس عميق، وأتاه خلاله الحلم التالي:

تراءى له أنه كان مع المديرة في إحدى ردهات النزل، على مقربة من الباب الزجاجي الأخضر، المفضي إلى حجرة "سانتينا" وكانت المديرة – عند بداية المنام– تشير بأصابعها إشارات غريبة، وكأنها تطب الصمت، وتنهمك – في الوقت ذاته– في فتح الباب بتؤدة.. وما لبثا أن دخلا الغرفة على أطراف أصابع أقدامهما، فتبينا أنها ملأي بأصص نباتات ليفية، و(سباخ)، وأشجار

مثقلة بأزهار.. وبالرغم من أن الغرفة كانت مظلمة، واسعة، إلا أن ثمة أضواء غريبة كانت تنبعث من الألوان الكهربائية الجامدة، التي اصطبغت بها تلك الأزهار.. أضواء حمراء، وزرقاء، وخضراء، وصفراء، وبنفسجية.. تماما كما تبدو أزهار الحدائق العامة، عندما تتجمع السحب السوداء الكثيفة على ارتفاع غير شاسع فوقها، وينتشر الضوء الشاحب المتعرج – ضوء الفجر الكاذب– فيستلقي على أحواض الزهور الخضراء، الموشاة بزخرف من الزهور المتعددة الألوان على أن هذه الازهار لم تستأثر بانتباه "جانماريا" لأكثر من لحظة واحدة، فقد اتجه بصره نحو ظهرين توسطا الحجرة، وانحنيا على جسم كان يشع بالنور.. وتبين لفوره أن الظهرين لتلك المرأة "كوكاناري" و"نيجريني". وكان الأخير قد خلع سترته وصديريه، ليكون أقدر على الحركة، فظهر على "البنطلون" الفاتح اللون، وبين فرعي "الحمالة"، قميص مهدل، لا يوحي شكله بالنظافة.

في حين أن "كوكاناري" كانت مسربلة بالسواد، وقد بدأ عليها أنها كانت متأهبة للخروج، وعلى رأسها قبعة تعلوها ريشة، بينما تدلت من ساعدها حقيبة كبيرة مربعة الشكل. وكان الاثنان ينحنيان على مهد ينبعث منه النور، وهما يصدران بذراعيهما حركات لا معني لها. واقترب "جانماريا" منهما، وقد ثار فضوله، فرأى أنهما كانا يسويان أغطية فراش أبيض صغير، رقدت فيه "سانتينا".. وكانت محوطة بوسائد، وقد برز نصفها الأعلى بأكمله من السرير.. ولاحت في قميص نوم نظيف، موشى بأشرطة من "الدانتيلا"، وبزهور وورود مطرزة.. وقد بسط العجوزان ذراعيهما على الأغطية، قسرا.. ومع أن المساومة التي كانا يحاولان إغراءها بها كانت مخزية، إذ كانا يسعيان إلى أن يدفعا برجل بين أحضانها، إلا أن أغرب ما في الأمر، أن "سانتينا" لم تلح حزينة البتة، بل إنها كانت تبتسم مغتبطة!

وفي سورة الاستنكار والغيظ، أراد "جانماريا" أن يطرد هذين المخلوقين البغيضين بعيدا عن السرير، وأن ينقذ "سانتينا"، ولكنه لم يحس في نفسه قوة كافية لمواجهتهما وحيدا، ومن ثم فإنه تحول إلى المديرة ليسألها العون. وشدما كانت دهشته حين تبين أنها لم تعد موجودة بجانبه، وإنما كانت تجلس إلى مكتبها وسط أصص الزهور البهيجة الألوان المتألقة. وكانت تنحني على ملف من المشمع، وقد انهمكت في رص أكوام من العملة الفضية، في صفوف متناسقة.

وهرع إليها، وراح يناشدها – في حرارة– أن تتحرك، وأن تنهض وتخف إلى معاونته. ولكنه بدا وكأنه يتكلم إلى صماء لا تسمع، إذ أنها لم تحفل بالتطلع إليه. وهنا بدا الموظف الكهل يسير مترنحا في المكان، بعينيه الجامدتين، الخاليتين من الحياة –القاعتين خلف عدستي منظاره السميكتين– وبفمه الأسود الخاوي من الأسنان. وفجأة، داخل "جانماريا" اعتقاد بأن هذا الموظف هو العاشق المفسود الذي كان القوادان يحاولان أن يدساه في أحضان "سانتينا"، فإذا بحنق هائج يتولاه، وإذ به يندفع نحو الفتاة، فتطوق عنقه بذراعيها.

وفي تلك الأثناء، كان القوادان منهمكين مع الموظف الكهل في نقاش لم يدرك "جانماريا" محوره.

وفي حمية النقاش، رفعا أغطية الفراش، وانحنيا على قدمي "سانتينا"، فلم يلح على هذه أنها فطنت إلى أمرهما، وإنما راحت تتشبث بجانماريا في وجد جائح، فاحتواها بين ذراعيه، دون أن يحول بصره عن الثلاثة المنهمكين في الجدال عند طرف السرير. وعندما اشتد الجدال، رآهما يمضيان في رفع أغطية الفراش، حتى كشفا عن ساقي "سانتينا" النحيلتين. وود أن يمد يده، فيعيد الأغطية التي وضعها الأصلي، ولكنه عجز عن ذلك، إذ كانت "سانتينا" تعانقه فتشل حراكه.. وراح يناضل، دون أن يرفع شفتيه عن شفتي الفتاة. وهم بأن

يصرخ في الثلاثة: "ارجعوا أيها الفاسقون!"، ولكنه الفاهم إلى جواره، وقد استلقت ظلالهم رهيبة منذرة، على السرير الأبيض.. وراح يناضل في جهد مطرد العنف، فإذا به يستيقظ في النهاية!

وكانت الحجرة ترزح بظلام بارد تكاثف حوله. وفطن إلى أنه كان يطوق الوسادة في عنف، ويلصق بها شفتيه في نهم جنوني. ومع أنه كان قد استكمل يقظته، إلا أنه ظل يحس بدفء شفتي "سانتينا"، وشذي أنفاسها، يخالطان العبير المنبعث من قماش الوسادة.. كان مستيقظا، لا ريب في ذلك.. ولكن شفتي الفتاة كانتا مجسدتين في الوسادة، بمعجزة لم يفقه لها تعليلا .. وظل انفعاله الشهوي الممض الغريب دقيقة من الزمن، كان الفتى يكتوي خلالها بالغيظ وخيبة الرجاء.. وراح يقبل نسيج الوسادة الخشن ويعضه، حتى كلت شفتاه وأسنانه، ثم أصاب الأعياء فمه، فكف عن هذا الجنون، الذي خلف الوسادة مبتلة بلعابه!

واستوى جالسا في السرير، وهو منضج بالعرق البارد، ثم أضاء المصباح الذي كان يعلو المنضدة المجاورة للفراش، وانبأته الساعة القريبة من المصباح، بأن الساعة بلغت الثالثة صباحا. فقال لنفسه وهو يحك رأسه المهوش الشعر بكلتي يديه: "لقد كنت في كابوس طيلة الليل". وأحس باللعاب لزجا في فمه وحلقه، فأخذ كوب الليمون –الذي كان على المنضدة– وأفرغه في جوفه دفعة واحدة. ثم نهض مغادرا فراشه –وهو في "بيجامته"– وتسلل إلى الردهة حافي القدمين، مدفوعا بتلك الحوافز التي راودته أثناء الحلم.

وبدت الجدران البنية، والبساط الأحمر المشوب بالسمرة، والأبواب المغلقة، معتمة كئيبة، تحت أضواء المصابيح الكليلة المتباعدة. وقطع "جانماريا" الردهة التي كانت غرفته في نهايتها وهو يرتعش، ثم عرج على أخرى، ويمم شطر

الباب الزجاجي الأخضر، الذي كانت "سانتينا" ترقد خلفه. ولم تكن لديه أية فكرة عن الباعث على هذه المغامرة الليلية.. ولعله كان مدفوعا بالرغبة في أن يثبت لنفسه ولسانتينا مدي حبه، ومدى عزمه على أن ينتزعها من أيدي هذين اللئيمين الخسيسين!

وما أن بلغ الباب حتى وقف عنده، غير شاعر بما في موقفه من سفه أخرق، وألصق شفتيه بالزجاج، وهمس في سره: "إلى غد.. أقسم لك يا سانتينا، لأعملن على أن أفعل كل شئ لكي لا تعيشي مع نيجريني والمرأة كوكاناري بعد الآن!" وكان تفكيره في أن الفتاة تنام خلف تلك الألواح الزجاجية، يحرك عواطفه في انفعال عجيب، ويجعله يتوق إلى أن يسمع أنفاسها الهادئة.. فأرهف أذنيه، ولكنه لم يسمع سوى الصمت الناعس الذي كان يسيطر على النزل.

واشتد به الارتجاف –في النهاية– وقد أوشكت أطرافه أن تتجمد لفرط البرد.. وإذ راحت أسنانه تصطك، عاد إلى غرفته، واندس بين أغطية فراشه.. وسرعان ما غرق في النعاس!

وكان اليوم التالي يوم الأحد، وقد جاء ترافقه الغيوم والبرد،.. واستيقظ "جانماريا" مبكرا، ليذهب لأداء نوبته في التدريب العسكري، وليقضي سحابة الصباح مع أقرانه، ممن في سنه، يتدربون على استخدام البنادق، والمشي العسكري في طول ساحة الثكنا وعرضها. بيد أن التفكير في "سانتينا" لم يفارقه لحظة، خلال هذه التمرينات. فلما قدر له أخيرا أن يهرع عائدا إلى النزل –وهو منهوك القوى، مبلل بالعرق، مشعث الهيأة– كان الأمل يحدوه في أن يراها في قاعة المائدة، بيد أنه كان قد تأخر كثيرا عن موعد الغداء، فلما ولج القاعة، وجدها خاوية، إلا من مائدته التي كانت معدة في انتظاره. وراح يتناول غداءه وحيدا، تحف به الكآبة، ويخيم عليه القلق، إذ لم يكن يعرف متى سيقدر له أن

يري "سانتينا"، ولا أين كانت في تلك الأثناء. وفيما كان يحطم لحاء ثمرتين أو ثلاث من ثمار البندق، وجدها في سلة الفاكهة، وفدت المديرة على القاعة، فسارت إليه، وبادرته في دعة ووقار: "كيف حالك يا سنيور براجيجلي؟ هل نعمت بنوم طيب في الليلة السالفة؟".

فأجابها في عجلة، وهو ينهض عن مقعده: "لقد حظيت بنوم بديع حقا.. شكرا لك".

وعادت تقول، دون أن تدعوه للجلوس، وهي ترمقه بنظرة متفرسة: "لقد كنت أعرف أن عليك أن تذهب للتدريب العسكري، فحرصت على أن استبقي غداءك دافئا. فهل وجدته كذلك؟".

– أجل.. كان دافئا جدا.. شكرا لك.

ولم تكن عينا المرأة تشفان عن أي تعبير، ولكن بقية وجهها كان يوحي بالحنان، والرعاية، والعطف، وكأنها كانت تود أن تقول : "إنك لا تزال بعد فتى صغيرا، وإن قلبي ليلين إشفاقا عليك.. لكم أود أن تشعر هنا بأنك في بيتك، ووسط أهلك!".. وسوت بيدها الشريط الذي كان يزين سلة الفاكهة، ثم قالت أخيرا: "لدي خطاب لك من السنيورينا (الآنسة) رينالدي، سألتني أن أسلمك إياه، عندما غادرت النزل في الصباح".. ووضعت الخطاب على المائدة، ثم بارحت القاعة –كما دخلتها– في تؤدة، وفي غير إسراع.

وغاض الدم من وجنتي "جانماريا" حين سمع كلمتي: "غادرت النزل"، فإذا وجهه يغدو شاحبا كالجليد، وشعر كأنه موشك على الإغماء. وما إن غادرت المديرة القاعة، حتى أمسك بالخطاب وفضه. وكانت الرسالة مقتضبة: "لقد اضطررت إلى مبارحة روما، ولكني سأعود بعد الظهر، فكن في مقهى "اليكترا"،

حوالي الساعة الخامسة.. المقهى المطل على ميدان "لنجوتيفيري" وانتظرني في القاعة الحمراء –المخلصة..." وكانت الرسالة مذيلة بخطوط متداخلة، غير واضحة، كان من العسير أن يميز فيها اسم "سانتينا رينالدي".

وغمره ارتياح، وكأنه يعود إلى وجه الأرض، في الخلاء، بعد أن كان يتخبط تحت سطحها، وقفز عن المقعد الذي كان قد تهالك عليه، وراح يقفز على الأرض الخشبية المتداعية، في الحجرة الخالية، وكأنه يرقص إحدى رقصات الحرب. ثم هرع ثم هرع إلى غرفته، وهو لا يزال نشوانا، يحس بأنه ماض في الرقص، فضبط مؤشر الجرس في الساعة المنبهة، بحيث يوقظه قبل الموعد الذي حددته "سانتينا" بساعة من الزمن.. ثم استلقى على سريره، دون أن ينضو عنه ثيابه، واستغرق لتوه في نوم عميق.. فإن التوتر العصبي الذي لازمه في يومه السابق، واستيقاظه مبكرا في ذلك الصباح، والتعب الذي لحق به من جراء التدريبات العسكرية. كل هذه أنهكت قواه. ولما كانت مخاوفه قد تبددت عن ذهنه، فإن الأمل أفعم نفسه، وجعله ينسي كل هم، ومن ثم فإن نومه كان ناعما، مريحا، على النقيض مما كان نومه في الليلة السالفة!

واستيقظ قبل أن ينبهه جرس الساعة، ففتح عينيه، وراح يتأمل الحجرة في هناء، فإذا بغسق غروب الشتاء المبكر، يزحف عليها.. وقال لنفسه: "لن ألبث أن أرى سانتينا بعد قليل".. ولم يقو ذهنه على أن يبتعد عن هذه الفكرة البهيجة.. وأسرع فاغتسل، ورجل شعره في عناية فائقة، مستخدما قدرا من الدهان (البريانتين) أكثر مما اعتاد ولاحظ في ارتياح أن البثور كانت أقل ظهورا منها في اليوم السابق. وارتدى حلته القاتمة، وأحاط عنقه بأبدع ربطاته، ثم غادر النزل، وفي نفسه مزيج من الاضطراب والاغتياظ.

وأحس بأنه كان صافي المزاج، متحررا من أي شك في نفسه، حتى أنه راح

يرمق في رضى، وليس في قلق غروب شمس الشتاء، والغيوم القاتمة، المنذرة بالعاصفة. وكانت الشوارع المحفوفة بالبيوت العالية، المزدحمة بالناس، المرصعة بالأضواء، تمتد في خطوط ينصب عليها ضوء باهت منساب من وراء الحواف الداكنة.. حواف السحب القاتمة. وكانت الأشجار تنبثق من ثغرات مستديرة على أرصفة الشوارع مشرئبة نحو السماء، وقد انتصبت فروعها عارية من الأوراق. وكانت الريح تنساب خلال هذه الأغصان العارية، فتملأ مظلات المتاجر وتجعلها تهتز وتنتفخ.. وتتربص للمارة خلف منعرجات الطرق، لتفاجئهم وتضطرهم إلى الجري وراء قبعاتهم، التي كانت تنطلق في الفضاء، كأنها قمم تتوج جبالا من الهواء..

وراقب "جانماريا" شخصا انطلق وراء قبعته. وما لبث أن دخل المقهى الذي واعدته "سانتينا" على أن يكون ملتقاهما ولم يجد عناء يذكر في الاهتداء إلى القاعة الحمراء، فإذا بها بعيدة عن المشرب برواده المتدفقين، وبرنين الكؤوس والعملة.. وبعيدة عن الفرقة الموسيقية التي كان عازفوها من النساء، وقد جلسن على منصة، يجربن أدواتهن الموسيقية قبل أن يشرعن في العزف. وعندما لمحت إحدى العازفات "جانماريا" يلج المكان، مالت على إحدى جاراتها، وأسرت إليها بكلمات، ثم ابتسمت. ولمح "جانماريا" الابتسامة فاغتبط.. كان كل شيء يبشر بالخير.

ولم يطل به الانتظار، في جوف القاعة الحمراء الخالية من الرواد. فقبل انقضاء عشر دقائق، وعندما شرعت الفرقة الموسيقية في عزف النشيد الكبير من "أوبرا عايدة"، أقبلت "سانتينا" وكانت يداها مدسوستين في جيبي معطف زاهي اللون، كما كانت ترتدي قبعة ثبتتها فوق مؤخرة رأسها، تاركة

جبينها ومفرقها عاريين.. وكانت تسير متسكعة، وقد انخسف صدرها،

وبرز بطنها. ولاح في عينيها اكتئاب يوحي بالقنوط والهم، بينما التوى فمها – الملطخ باللون الأحمر، في غير عناية– بشكل نم عن مرارة واغتمام. وجلست دون أن تنبس ببنت شفة، أو ترد تحية "جانماريا" ثم أخرجت سيجارة أشعلتها، وقالت للساقي: "براندي".

وأطرقت برأسها، والسيجارة بين شفتيها، والدخان يتصاعد إلى عينيها، وراحت تلك ركبتيها برفق، بيديها العاريتين، اللتين أحمرتا لفرط البرد.. وبدت مغرقة في أفكار حزينة.. ومرت بضع دقائق مثقلة بالصمت، ثم تجاسر جانماريا على أن يسألها: "ما بالك؟.. ما الذي يحزنك إلى هذا الحد؟" وانتزعت "سانتينا" السيجارة من شفتيها، وقالت في حدة: "ما بالي؟.. كل ما هنالك، هو أنني لم أعد أستطيع الاحتمال.. هذا هو الذي يشقيني؟.. ما بالي؟!.. لقد سئمت هذه المعيشة.. بل مللت الحياة ذاتها!.. ما بالي؟!.. لو أنني مت في هذه اللحظة بالذات، لمت سعيدة!".

فاعترض جانماريا قائلا: "لقد كنت تنظرين إلى الأمور –في الليلة السالفة– نظرة غير هذه".

وهزت كتفيها، وهي تجيب: "الليلة السالفة ولت وانقضت.. ولكن، لا.. أعتقد أن كل الوجود لن تكون مثمرة، وأنني لن أحظى أبدا.. لن أحظى إطلاقا بمفارقة هذين الشخصين، مهما أفكر في طرق الخلاص".. وهزت رأسها في اقتناع مرير، وردت السيجارة بين شفتيها، ثم عادت ترسل البصر إلى ما أمامها، وهي شاردة البال.. وعاد الصمت يرين مرة أخرى.. وكانت أصوات الأدوات الموسيقية تسمع في الغرفة السابقة، والفرقة تسوي أوتارها.. ومن وقت إلى آخر، كان إبريق القهوة الكبير، يرسل في جو المقهى أزيزا.

وعاد جانماريا يكرر في تلطف: "ولكنك أنبأتني –في الليلة السالفة– بأن

في وسعك أن تتحرري منهما، إذا أنا ساعدتك. فهل تعنين أنك نسيت ذلك؟" وتمتمت: "ما أكثر ما يقوله المرء!" ثم تحولت إليه، فحدقت فيه، ثم قالت: "لا، لم أنس، ولكن أية معونة تستطيع أن تمنحنيها، أن شئت الحق؟.. إنك لست سوى فتي صغير، وهناك أشياء معينة لا يجوز أن أسالكها. ثم.. كم مضى من الوقت على تعارفنا؟.. لم يكد ينقضي يوم كامل!"

فندت عن "جانماريا" إشارة احتجاج: "ليس للوقت شأن في هذا، ففي وسع المرء أن يعرف امرءا آخر في يوم، معرفة تفوق ما قد يتاح له لو أنهما كانا متعارفين منذ عشر سنوات. أما بصدد ما قلته من أنني فتي صغير، فليس للسن دخل في هذا الأمر كذلك. إن معونتي لا تقل شأنا عن معونة أي شخص آخر".

وفجأة، شرعت الفتاة تتحدث كأنها تهذي، كما كانت في الليلة السالفة.. فراحت تئن وتردد: "ولكن، لا.. لا.. هناك أمور لا أستطيع أن أسألك إياها. إنني أدرك ذلك.. لا أستطيع.. وحتى لو صارحتك بها، فلن يكون في وسعك أن تيسرها لي.. لن تستطيع.. إنني ألمس ذلك، أما أنت فلا تدركه!".

وكان هذا المساس منها بتقدير "جانماريا" لنفسه، حافزا له على أن يشعر بأنه قادر على أية تضحية، مهما يكن نوعها. فلو أن "سانتينا" سألته أن يتزوجها لاستجاب لها متحمسا لذلك، لم يلبث أن قال لها: "ليس عليك سوى أن تختبريني، فلن تفيدي شيئا إذا أنت لم تضعيني موضع التجربة، وأكتفيت بأن تقولي "لا أستطيع!"

– ولكن أعرف.. أعرف.. أنك لن تستطيع!.

– إذن، فهل لك أن تذكري لي السبب؟

وعادت، تطيل النظر إليه، في تقدير الطاهية التي تخرج فطيرة من الفرن،

وتروح تتأملها لترى ماذا كانت كما تشتهي. وأخيرا سألته، في عبارة مقتضبة ولهجة جافة: "أفعندك ثلاثة آلاف؟".

واتسعت حدقتا جانماريا دهشة، ثم سألها: "ثلاثة آلاف ماذا؟"

فأجابت في لهجة لاذعة: "ثلاثة آلاف ماذا؟.. ثلاثة آلاف ليرة، طبعا!.. أفرأيت أنني كنت على حق؟.. أنك لن تستطيع.. قد كنت أعرف أنك لن تملك مساعدتي، وليس على سوى أن أمضي في هذه الحياة الجهنمية. على أنني —لحسن الحظ— أملك وسيلة لا تخفق، لتقصير أمدها..."

وكانت على صواب حقا، فإن "جانماريا" لم يكن يمتلك ثلاثة آلاف ليرة.. وشعر بحيرة، وارتباك، ولكنه كان عاجزا في الوقت ذاته عن التفكير في أي شئ آخر، بعد أن أصبح اعتداده بنفسه موضع اختبار.. وشاء أن يكسب الوقت، ريثما يفكر في خطة لتدبير المبلغ، فتساءل: "وما هذه الطريقة؟" وضحكت "سانتينا" بمرارة، وقالت: "آه.. إنها طريقة سهلة، ضئيلة النفقات.. زجاجة صغيرة، بديعة الشكل، مليئة بالفيرونال... ولسوف أشرب كل ما تحتويه، قبل أن آوي الليلة إلى فراشي. فإذا أقبل الغد، كانت كل آلامي قد ولت.. كما يقولون في القصص".. وما إن قالت ذلك، حتى شاءت أن تمثل قرارها بحركة عملية، فتناولت كأس "الكونياك"، وجرعت ما فيه دفعة واحدة، ثم قالت وهي تتأهب للنهوض: "ما رأيك في الانصراف؟".

فأمسك جانماريا بذراعها، وردها إلى مقعدها قائلا: "انتظري دقيقة".. وأردف في لهجة أخوية، وهو لا يزال يدفعها في مقعدها: "أين تحتفظين بتلك الزجاجة؟" وقالت "سانتينا" وهي ترمقه بنظرة نمت عن أنها كانت تخدعه: "إنها في البيت". ولكني عيني جانماريا علقتا بالحقيبة التي كانت "سانتينا" تتأبطها بحرص، ثم قال بلهجة آمرة: "هات حقيبتك!"

وتمنعت قائلة: "وما شأنك بها؟"

– أعطني هذه الحقيبة!

– لا.. لن أعطيك

– بل لسوف تعطينيها!

وحاول "جانماريا" أن يستولي على الحقيبة، فجاهدت "سانتينا" لكي تحتفظ بها. وفي النهاية، غلبت الفتاة على أمرها، فأسلمته الحقيبة، وتهالكت في مقعدها كسيرة النفس. وقالت في تؤدة، وكأنها تجر الكلمات جرا: "يا لك من وحش.. لقد آذيت رسغي!". بيد أن "جانماريا" لم يصغ إليها، إذ كان قد فتح الحقيبة، وعثر خلال علبة "البودرة" وطلاء الشفاه الأحمر وما إلى ذلك من أشياء، على زجاجة "الفيرونال". وقال في لهجة جمعت بين القسوة والتظاهر بالفكاهة: "إن الفيرونال يصلح كل الصلاحية لري هذا النبات ولعله يسلمه إلى النوم.. بل وإلى الغطيط". وفض سدادة الزجاجة، ثم صب ما فيها من سائل على التربة التي كانت تملا أصيصا به شجرة، خلف مقعده.

وراقبت "سانتينا" حركاته في استهجان، ثم قالت في سخرية: "إذا كنت تخال أنك تؤثر على بهذه الطريقة.." وأمسكت عن الكلام، ثم عادت تردف قائلة: "كأنني أعجز عن شراء زجاجة أخرى من الصيدلي القائم على ناصية الطريق" ولم يحفل "جانماريا" بكلامها، بل قال، وكأنه يستأنف حديثه السابق: "أخبريني عن السبب الذي تحتاجين من أجله إلى هذه الليرات الثلاثة آلاف.. فإذا كان المبلغ ضروريا حقا، فسننظر في أمر تقديمه إليك".

وكان كاذبا، لأنه لم يكن يمتلك المبلغ، ولا كان يعرف طريقة تمكنه من الحصول عليه. ورمقته "سانتينا" بنظرة مترببة، ثم قالت: "تري هل أستطيع أن

أكون صريحة معك؟.. لست أدري لماذا أريد أن أصارحك، ولكنني مضطربة حائرة.."

– ولكن، ما الذي يدعوك إلى الشعور بالاضطراب والحيرة؟.. لماذا؟.. ولماذا تتحرجين معي...؟

وانحني جانماريا في عطف، وأمسك بيديها.. ولاح عليها شيء من الاطمئنان، فقالت: "أري أن أصارحك".. وترددت برهة، ثم قالت وهي لا ترفع طرفها نحوه: "إن لي أما.. أما حقيقية، وليست هذه المرأة التي أقيم معها وأمي جد فقيرة!"

– آه، فهمت!

– ثم أنها، فوق هذا، مريضة.. مرضا قاسيا..

وتطلعت إلى "جانماريا" في تساؤل. ثم انطلقت –فجأة– تقول بسرعة وطلاقة "وهي في مرضها لا تملك نقودا، ولما كنت استولي على نصف النقود التي أحصل عليها –بالطريقة التي ذكرتها لك– فإنني أبعث إليها بهذا المال، لكي تعالج في مصحة بالقرب من (تريستا). فهل أدركت الآن، سر بقائي مع "نيجريني" وتلك المرأة "كوكاناري"؟.. ذلك لأنني لو كنت وحدي، لما استطعت أن أحصل على المال الكافي لعلاج أمي ولنفقاتي، ولو ظفرت بعمل طيب.. أما إذا قدر لي أن أحصل على ثلاثة آلاف ليرة، فإن بوسعي أن أضمها إلى القليل الذي أدخرته، وبذلك أفسح لنفسي فرصة.. فإن المبلغ يكفيني لمدة، لنقدرها بعام أو حوالى العام.. وإذ ذاك أستطيع أن أفارق نيجريني والمرأة كوكاناري، وأبحث لنفسي عن عمل. أما إذا أخفقت في الحصول على المبلغ، فلن أجسر على أن أذهب بأمي المسكينة إلى المصحة.. فهي جد مريضة، ولن يقدر لها أن

تعيش شهرا واحدا، بلا علاج.. وهكذا ترى أنني كنت أرسم خططي، أملا في أن أسعد بأوقات هنيئة. ولكنني الآن فقدت كل أمل، في الوقت الذي لم أعد أحتمل فيه المضي في هذه الحياة.. وهذا هو السر في أنني كنت أريد أن أقضي على نفسي!"

وقال" جانماريا" لنفسه: "يجب أن أحرص على أن لا أكشف لها عن مشاعري". ولكن عينيه سرعان ما أغرورقتا بالدموع، فإن مثل هذه التضحية كانت أسمى من طاقة البشر، في رأيه.. ولولا الجهد الجبار الذي بذله، لخر راكعا أمام تلك القديسة! وتساءل أخيرا: "ولكن.. ما المرض الذي تعانيه أمك؟" فمست صدرها، في توجس واضطراب وقالت: "أنها مسلولة.. تسعل وتبصق دما".

وشغل "جانماريا" بتقليب الأمر، على كافة الوجوه.. كان يدرك أنه لا يملك مالا –في متناول يده– يزيد عن ألفي ليرة.. فمن أين يستطيع أن يحصل على الألف الثالثة؟.. وإلى من يلجأ؟.. لم يكن في وسعه أن يطلبها من أسرته، فإن الأسرة كانت تقيم بعيدا، وسيتأخر وصول النقود إذا أرسلتها.. وقد تطلب منه إيضاحا قبل إرسال المبلغ، فإذا ما ذكر السبب، فمن المؤكد –تقريبا– أنها سترفض إرساله.. إذن، فإلى من يلجأ؟

وخرج من أفكاره ليسأل الفتاة: "أولا تستطيعين أن تدبري أمورك بمبلغ أقل من هذا؟".

ورآها تهز رأسها وتقول: "لا، للأسف!.. إننا بحاجة إلى الثلاثة آلاف ليرة بأكملها!.. ولكن لا تشغل بالك بالأمر".

وصمتت لحظة، ثم قالت: "لماذا أكربك بمحنتي؟.. لسوف أدبر أموري،

على أية حال.. وقد أخفق.. ولكن الحالين سواء، بالنسبة إليك، فلا تحمل هما"

وكانت هذه هي الكلمات اللازمة –بالذات– لتحمل "جانماريا" على أن يتشبث بموقفه الإنساني. فقال: "مهلا!.. انتظري!". وأخذ يستعرض في ذهنه أسماء المعارف القلائل، الذين كان يعرفهم في (روما).. كانوا جميعا من الأقارب تقريبا.. وكلهم من المتقدمين في السن، أو ممن يكبرونه، على أي الأحوال.. وما سبق له أن زارهم. وتتابعت أسماء هؤلاء الأقارب، في ذهنه –اسما بعد آخر– فلاح له، لأسباب متباينة، أن ليس بينهم من يستطيع أن يقدم له العون المنشود.

كان كل ما يحتاج إليه، يتمثل في شخص على استعداد لأن يوافق على إقراضه النقود، دون أن يذكر الأمر لأسرته، ودون أن يسأله إيضاحا. ولسوف يعمل –بعد ذلك– على دفع هذا الدين، أما باللجوء إلى أمه، أو بالإدخار من نفقات معيشته! وكانت خواطره تنعكس على أساريره، تحت عيني "سانتينا" المسلطتين، اللتين كان الأمل يخفق في أن يتوارى فيهما وراء ستار من الأسي.

وفجأة، قال الفتى لنفسه: "عمي ماتيا.. كيف لم يخطر ببالي من قبل؟".

كان العم "ماتيا" من أشقاء أبيه..في حوالي الخمسين من عمره، توحي كل الدلائل على أنه غني.. وكان أعزب، يقيم وحده في دار على غير بعيدة من "البنسيون". وكان "جانماريا" لا يكاد يعرفه.. كل الذي علمه عنه، هو أنه عاش حياة لاهية عابثة متحررة، ثم اعتزل الناس تماما من جراء مرض غامض، لا يدرى أحد أكان ناشئًا عن حال عصبية، أو كان نتيجة شيء آخر فأصبح نادرا ما يغادر بيته، أو يستقبل أحدا سوى نفر قليل من الأصدقاء الحميمين، ولم يدر "جانماريا" السر فيما داخله من يقين بأن "العم ماتيا" هو الشخص الذي ساقه الدهر إليه كي يمنحه المبلغ.. كل ما هنالك هو أن هاجسا خفيا أوحى له

بذلك، فكان هذا الإيحاء كافيا لأن يطمئنه!

وقال يسأل الفتاة في لهجة من يبرم صفقة: "متى تريدين هذا المبلغ؟"

وأخفقت ابتسامة.. تنم عن جشع وعن استهواء وسرور –في أن تتوارى، وإنما سرت في قسمات وجهها، حتى انتهت بأن رفعت طرفي فم "سانتينا" الواسع، ورسمت غمازتين على خديها النحيلين المكسوين بالمساحيق. وقالت: "إن الأمر متوقف على ما تراه أنت.. أليس كذلك؟.. متى ترى بوسعك تدبيره؟" فقال "جانماريا" معارضا، وهو تواق إلى أن يظفر بإعجابها: "إن الأمر ليس بهذا الوضع.. حددي أنت الموعد الذي تحتاجين فيه إلى المبلغ!"

وأجابت، وهي لا تزال تصطنع الارتباك والحرج: "ولكني لا أدري.. الليلة، أو صباح باكر.."

فقال جانماريا، في تصميم: "بل الليلة.. ستحصلين الليلة على المبلغ.. والآن، هيا بنا!"

ونهض، وهو يتخذ مظهر الرجل المسيطر على نفسه، وعلى سواه، وعلى الظروف، وألقى بقطعة من النقود على المائدة، ثمنا للشراب.. ولكن الفتاة قالت محتجة، إذ كان عليها –في هذه المرة– أن لا تتحمس للانصراف:"وفيم العجلة؟.. أفلا نستطيع أن نمكث قليلا؟". وكان جوابه أن لابد له من التعجل، إذا أريد توفر المبلغ قبل المساء. وهنا لم تجد الفتاة سبيلا إلى الاعتراض، فتبعته في صمت، إلى خارج المقهى. على أنهما لم يكادا يبلغان الطريق، حتى أمسكت الفتاة بذراع الفتي، وقادته نحو منطقة معتمة، مليئة بالحدائق المهجورة، على طول ضفة النهر. وقالت بصوت خافت ناعم، وهما يسيران جنبا إلى جنب، بين ظلال الأشجار التي حفت بها الرطوبة، واسمر لونها، وتعرت من أوراقها: "ترى

كيف أوفيك جزاءك عن هذا الكرم الذي تغمرني به؟"..

وصمتت برهة، ثم عادت تقول: "لقد فعلت من أجلي –بعد تعارف لم يمض عليه أكثر من يوم واحد– ما لم يفعله أي شخص في عمري بأكلمه.. أواه!.. ما أجمل أن يصادف المرء –بين الحين والآخر– أناسا في مثل طيبتك" وبعث هذا التقدير والإطراء، شيئا من الاضطراب في نفس جانماريا.. إذ أنه كان يكره أن يسمع أي تعليق، على ما يستطيع أن يبديه من شهامة. وكان –فضلا عن ذلك– يؤثر أن ينال التقدير قبلات وليس كلاما.. قبلات من ذلك النوع الذي أذاقته إياه في البداية، لذلك توقف عن السير فجأة، وأمسك بذراعها، وقال: "امنحيني قبلة!"

وحملقت فيه "سانتينا" مأخوذة، ثم شرعت تصده، وهي تقول كالمحمومة: "ها أنت ذا تكشف عن نفسك. إنك تريد أجرا في مقابل نقودكّ". ودفعته عنها، قائلة. "إنك على شاكلة الآخرين.. بل أنك لا تحترم ظروفي"

وعض "جانماريا" على شفته، وهو يقول لنفسه: "أنها على حق.. فأنا أمثل دور الشهم المنافح عن الفضيلة، ثم أحاول أن أتقاضي ثمن عطفي، كما يفعل الآخرون جميعا!".. وأفلتت الفتاة وهو مستاء من نفسه، غاضب من تصرفه، واتكأ على حافة السياج المطل على النهر، وانحنى يرقب الماء.. واقتربت منه "سانتينا" لفورها، وهمست في قلق، وقد تهدج صوتها: "أرجو ان لا تكون مستاء مني.. أمستاء أنت؟".

وأمسكت بيده، لتحيطها بخصرها، وقالت: "إنني لا أشعر باستعداد لذلك، ولكنني فيما بعد.. عندما أتحرر من نيجريني وكوكاناري، وأحصل على عمل، وأطمئن إلى أنني سأكون قادرة على أن أدفع نفقات علاج أمي.. إذ ذاك سأكون لك.. لأنني أحبك ولسوف نستأجر –إذ ذاك– غرفة، أوافيك

فيها كل يوم، فنتطارح الهوى، وأهبك نفسي.. لك وحدى، وليس لمخلوق سواك!".

وراح "جانماريا" يقول لنفسه، وهو يصغي إليها: "يا له من مزيج عجيب، من البراءة والفساد.. من الرقة والتهتك".. وقويت في نفسه الرغبة في أن ينقذها من الرذيلة. ثم رآها تستدير وتطيل التحديق إلى نهر (التيبر)، مستغرقة في تأمل المياه المنسابة. ولم يكن في وسعهما أن يريا، في تلك المساحة من الماء، التي كان الظلام يشتد فوقها، والتي امتدت في أسفل الضفة الطويلة المنحدرة، سوى لمعان ينساب متسللا..

وسمع "جانماريا" الفتاة تتمتم وكأنها تحدث نفسها بصوت خفيضي، وهي مستغرقة في التأمل: "ومع ذلك، فكم يبدو لي أن أسهل حل، هو أن ألقي بنفسي من فوق هذا الحاجز، وأترك التيار يجرفني.. وفي اليوم التالي، تقرأ في الصحف: "عثر على جثة فتاة مجهولة، بالقرب من خسر جريبالدى"!ولسوف تتأثر لحظة، ثم تنسي كل شئ.. "ألا ترى أن هذا أسهل؟"

وهز "جانماريا" رأسه، قائلا: "لا.. لن يكون هذا هو الحل الأسهل. ثم، ما الجدوى التي ترينها في ذلك؟.. أن الحياة جميلة!". وشعر وهو يقول ذلك، بأنه لم يقل يوما ما هو الأصدق، ولا ما هو أكثر انبعاثا من قلبه، من هذه العبارة الأخيرة، فعاد يرددها: "أجل، إن الحياة جميلة!" وأحس بهناء.. وألصق فخذه بفخذ "سانتينا" العجفاء الجامدة، ثم أردف قائلا: "لننصرف، فقد آن الوقت كي أمضي في مهمتي".

وغادرا الحدائق، وسارا حتى بلغا البداية الجسر، فافترقا. ويممت "سانتينا" شطر النزل، في حين عبر "جانماريا" الجسر، في طريقه إلى الضفة الأخرى، حيث كان عمه يقيم.

كان ثمة تمثالان قديمان، انثنت أذرعهما المفتولة فوق رأسيهما، تحمل شرفة من الرخام.. وقد سودتهما طبقة كثيفة من الغبار، تتخللها خطوط احتفرتها مياه الأمطار.. وخلال الباب الكبير، الذي قام تحت هذه الشرفة، سار "جانماريا" بعد أن فارق "سانتينا" بعشر دقائق. واستطاع أن يتبين –خلف الباب الكبير– ساحة تكسوها نباتات قائمة، تتواري بينها نافورة كان خرير مائها يتردد في صدي متضاعف، حتى السقف الرخامي، الذي يعلو المدخل.. وخلف هذا المدخل، كان ثمة سلم عريض الدرجات، مكسو ببساط أحمر، يفضي إلى الطبقات العليا. فصعد "جانماريا" أول صف من هذه الدرجات، واجتاز عرصة لا تتخللها أبواب، وتحف بها فجوتان في الجدار، استوى فيهما تمثالان مغبران من الفخار، كأنهما رقيبان على كل قادم.. ثم صعد الفتى صفا آخر من الدرجات أضيق من سابقه، وأشد انحدارا، وعبر ردهة تحف بها نوافذ تطل على ساحة الدار، ثم بلغ –أخيرا– بابا صغيرا، لا يحمل لوحة باسم القاطن. فدق الجرس.

وفتح له الباب خادم في أوسط العمر، لا يرتدي زيا رسميا. وإنما كان في حلة رمادية قاتمة، ذات ياقة منتصبة، صلبة، بدا فيها كرجال الكنيسة.. وما إن سمع اسم "جانماريا" حتى دعاه للدخول، في وجوم ورصانة، وتمتم في ضيق: "سأذهب فأري ما إذا كان الكونت موجودا". واختفي، مغلقا خلفه بابا ذا طلاء أبيض. على أن الانتظار لم يطل بجانماريا، فقد برز الخادم نفسه –بعد لحظة– وفتح مصراعي الباب، ودعاه إلى أن يتبعه. وهكذا اجتازا حوالي ست حجرات، أسدلت على نوافذها ستائر حمراء وفرشت بأثاث ضخم عتيق، أسود اللون، مطعم بزخارف من العظام.. بينما ازدانت الجدران بصور مصونة وراء الزجاج، في إطارات كانت –هي الأخرى– سوداء اللون.

وبلغا –أخيرا– حجرة مضاءة، مستديرة –كأنها حجرة الهيكل في كنيسة– ذات سقف أبيض مبطن، تحف به دائرة من الأعمدة، استوت في المسافات التي تتخللها، تماثيل قديمة، على حوامل من رخام. وكانت ثمة منضدة مربعة من المرمر، تستقر على تمثالين من البرونز، صيغا على صورة أبي الهول، وأوتيا أجنحة.. وقد قامت هذه المنضدة في منتصف الحجرة، في الموقع الذي كان يحتمل أن يقوم فيه المذبح، لو أنها كانت حجرة الهيكل!.

وإلى هذه المنضدة، جلس شخصان: عم جانماريا، وسيدة مسنة، في ثياب الحداد، يتدلى على جانبي وجهها طرفا وشاح إنساب من قبعة من طراز قبعات "مأري– ملكة اسكتلندا"، بينما غابت يداها في قفازين أسودين، وأحاط بعنقها المجهد شريط أسود.

وبدا عم جانماريا –في مظهره وأخلاقه–كصبي حطت عليه خمسون عاما، على حين غرة– دون أن تتاح له المراحل الانتقالية، بين الشباب، وأوسط العمر، ثم الشيخوخة– وجلبت في أذيالها ملحقاتها من شيب، وتجاعيد، وجهامة، وضيق لا سبيل إلى كتمانه، وعقد نفسية تتبلور على المحيا!.. وكان طويلا، نحيلا، في حلة رمادية صيفت سترتها بحيث يتماسك حول عوده، ورباط رقبة زاهي اللون، وزهرة في صدره.. أما وجهه، فكان لطيف القسمات، بادي الضجر، محتفظا بنضارته رغم عوادي السنين، تتخلله عينان زرقاوان غير جميلتين، وأنف انحرفت ذوابته إلى أعلي!

وما إن رأى الرجل ابن أخيه، حتى ندت منه إشارة تنم عن دهشة، ونهض على قدميه، ملوحا بيديه، مرددا: "ما شاء الله، ما شاء الله، ما شاء الله!". وكان السقف يردد صدي صوته الرفيع الحاد، في كل مرة يكرر فيها العبارة.. "ما شاء الله!.. من كان يتصور أنني سأراه.. تصورى!". وكان يحاول –في الوقت ذاته–

أن يثبت على عينه عدسة "مونوكل" تدلت في طرف شريط أسود، ثبت في عروة سترته.. ولكنه لم يفلح لفوره، أما لاضطراب حركته، وأما لاضطراب عواطفه!.. وعندما وفق —في النهاية— إلى تثبيت العدسة بين حاجبه وخده، قدم "جانماريا" إلى السيدة العجوز، التي كانت أميرة تحمل لقبا رومانيا، واسما انجليزيا!

وقال لها في صوت متهدج بالعواطف، وهو يشير إلى جانماريا: "إنه.. إنه يا عزيزتي اديث.. تصوري أنه الابن الأكبر لأخي المسكين، الذي مات منذ عامين، كما تعلمين!.. أنه ينتمي —من ناحية أمه— إلى آل "لورنتي".. أنك تعرفين آل "لورنتي" في (لوكا).. لقد ولدت زوجة أخي في فرع "سافيللي" من هذه السلالة.. لست أعني أسرة "سافيللي" المقيمة في (أنكونا)، وإنما تلك التي تقيم في (سيينا)، طبعا.. إنه الفرع الرئيسي، الذي تنتمي إليه كذلك "لورا سافيللي".. تلك التي تزوجت من "لويجي كاربنيا"، في الشتاء الماضي...." كان يدلي بهذه الأنساب بسرعة، وبصوت خفيض، وكأنه يدلي بإيضاح قليل الأهمية، ولكن لابد من أن يسوقه ليجلو الموضوع الرئيسي!.. على أن السيدة العجوز لم تكن تنصت إليه، إذ حولت وجهها المتهدل البشرة —المكسو بالنمش والشعر الأبيض— نحو "جانماريا"، وراحت ترمقه بنظرات انبعثت من عينين رماديتين، حادتين.. وأسلمته يدها ليقبلها، بينما كان عمه يردد في لهجة بدا منها أنه كان يصطنع الدهشة ليخفي العتاب: "مرحي، مرحي، مرحي!.. ترى لأي أمر أنا مدين بهذه الزيارة التي شرفتني بها على عير ارتقاب؟.. بدون إخطار، ولا اتصال تليفوني، ولا كلمة.. كأنك تهبط على من السماء!.. بديع، بديع.. أرأيت يا أديث؟!"..

وتحول إلى العجوز مستطردا: "أرأيت نهج أولاد الجيل الناشئ.. أنهم لا يعرفون معنى لكلمة "الاحترام"، أو آداب السلوك.. كل هذه أشياء ولت

وانقضت.. عادات عتيقة عفي عليها الزمن. أفكنت تتصورين أن أجرؤ —وأنا في سنه– على أن أزور، على غير توقع، دار عم لا أكاد أعرفه.. بل عم لا تكاد تكون بيني وبينه صلة؟.. لقد كان مثل هذا التصرف بعيدا عن العقل.. ولكن الزمن غير بديع!.. ماذا تحب.. قدحا من الشاي وكعكة؟" ولكن السيدة العجوز لم تبد ميلا إلى الأخذ برأي صاحبها، في تربية "جانماريا"، بل قالت للفتي، وهي تبتسم: "لقد كنت على صواب حقا، فلا حاجة البتة إلى الكلفة والمظاهر بين الفتيان والأعمام.. وفوق هذا، فإنه يبدو صريحا، ساذجا، لا يعرف التظاهر والرياء، كما كنت أنت في صغرك".

وأثارت هذه الكلمات قهقهة عالية انبعثت من العم ماتيا. وقال: "لا بأس، لا بأس!.. حقا، لابد لك من أن تتصرف على هذا النسق دائما، لا سيما وأنت ترى الأميرة تقره وتحبذه" ثم أردف، وهو يرمق الفتي، بسخرية ماكرة: "والآن، أتراهم جميعا بخير في (أريتسو).. أعني أمك وأشقاءك وشقيقاتك؟"

فأجاب جانماريا، وقد استقر على أحد المقاعد: "أجل.. أنهم جميعا بخير!"

– رائع! والآن، ما الذي تفعله؟ أتتلقي الدروس في المدرسة، وتذهب لمشاهدة مباريات كرة القدم؟

فأجاب جانماريا، وقد تضرج وجهه: "إنني في الجامعة أدرس لأعد نفسي للسلك الدبلوماسي. على أنني لم أشهد بعد مباراة من مباريات كرة القدم"

– وأين تنزل؟.. أين تقطن؟

– في "بنسيون همبولت"

فكرر عمه الاسم، في دهشة بدا أنه كان مبالغا فيها: "بنسيون همبولت..

أعترف أنني لم أسمع قط عن "بنسيون همبولت" هذا.. أتعرفين "بنسيون همبولت" يا أديث؟" وخفت العجوز الرحيمة إلى نجدة جانماريا مرة أخرى، إذ صاحت: "صه يا ماتيا!.لا تكن قاسيا بهذا الشكل!.ألا ترى الصبي يتململ وكأنه يجلس على دبابيس وأبر؟.. إنني أوقن من أن "بنسيون همبولت" نزل بديع!

فقال العم: "جميل جدا!.. لنذهب –في هذه الحال– فنقم في "بنسيون همبولت".. وأنت كذلك يا أديث!". وران صمت برهة، ثم عاد العم يثبت عدسته المفردة، بين حافتي محجر عينه، وأخذ ينعم النظر في جانماريا. وما لبث أن قال: "أنك لم تخبرني بعد بسبب هذه الزيارة السارة، غير المرتقبة.. فلابد من أن ثمة باعثا حفزك عليها. لا تقل أنك جئت مدفوعا بشوقك إلى..!"

وقال" جانماريا" معترفا، وهو مرتبك: "لقد جئت لغرض حقا، ولكني آسف إذ لا أستطيع أن أفضي إليك به مباشرة، هكذا.. لسوف أحتاج إلى أن أحدثك في خلوة!" والتفت "العم ماتيا" مزهوا، وهو يلتفت إلى صديقته: "أرأيت إلى جانماريا، وقال: ولكن، فيم تريد أن أحدثك في خلوة؟ تستطيع أن تقول كل ما لديك، دون حرج، أمام الأميرة.. فهي توأم نفسي.. إننا روحان في جسد واحد، أو بالأحرى.."، وبادر مصححا، في لهجة معتذرة: "جسدان لهما روح واحدة!"

وتطلع جانماريا إلى عمه، ثم إلى السي العجوز، في تفكير. ونهضت الأخيرة مقعدها، وهي تقول: "إذا شئتما أن تتحدثا يا ماتيا، فسوف أنصرف.. إني الفتي المسكين محرج لوجودي!"

فقاطعها عمه في تأكيد، وهو يرد السيدة إلى مقعدها: "أبدا.. أبدا. لن تتحركي، ولسوف يتكلم في حضورك. ما كل هذا؟.. كأنما ثمة أسرار أكتمها عنك"

وتردد جانماريا، ثم تغلب على إحجامه، إذ خطر له أن السيدة العجوز كانت في صفه، وأن وجودها لن يضيره، بل أنه قد يكون في صالحه. وشرع يقول وهو كاره: "لا بأس إذن.. هذه هي المسألة!". وهنا، أخذ يتكلم بعجلة – بسرعة بالغة– وهو يروي أكذوبته، دون التباطؤ والوقفان المألوفة عند وصف شئ يكون قد حدث فعلا: "لقد كنت مع عدد من الأصدقاء –في الليلة الماضية– فانسقنا إلى المقامرة..."

وهنا قاطعه عمه، وقد تبدى الفضول على وجهه الذي ينم عن نزوات شهوية: "إلى ماذا؟". فقال جانماريا لفوره: "إلى البوكر، و.. حسنا، لقد خسرت مبلغا كبيرا.. ألف ليرة.. والآن، أنني مضطر لأن أدفع المبلغ خلال أربع وعشرين ساعة، ولكني لا أحمل معي نقودا، لذلك جئت أسألك أن تقرضني، ولسوف أكتب إلى الأسرة وأسألها أن ترسل لي المبلغ!"

وتوقف وقد غشيه شعور بأنه قد أساء التعبير عما بنفسه، بدرجة غير مقنعة.. وكانت السيدة العجوز تتأمله، وهي بين الدهشة والتسلي الفكه، بينما راح عمه يتفرس فيه متفحصا، خلال عدسته. ثم شرع العم –فجأة– في القهقهة، ودق بيده على المنضدة قائلا: "يا لها من قصة بديعة!.. بوكر، ألف ليرة، أربع وعشرين ساعة للدفع، العم المثرى الذي يقدم النقود فورا لينقذ شرف الأسرة.. يا لها من قصة عجيبة.. هذا بينما كانت منساقا للوهم بأنك شاب حديث "مودرن، رياضي.. واسع العقل، كما يقولون اليوم.. كنت أحسبك ذكيا!..

وضحكت السيدة العجوز، وإن لم يتجل عليها أنها كانت كالعم في عدم تصديق الرواية، أو أنها رأت فيها مادة للتفكهة فحسب. أما "جانماريا"، فقد تضرج وجهه حتى بلغ الدم منابت الشعر.. وود لو أنه لم يفتح فمه إطلاقا.

وقال متلعثما في النهاية: "ألا تصدقاني؟"

وقال عمه، وهو لا يزال مغرقا في الضحك: "لا أصدقك طبعا.. يحسن بك أن تنظر إلى شكلك في المرآة. إنك لم تؤت مظهر الفتي الذي خسر ألف ليرة في "البوكر".. أليس كذلك يا أديث؟"

وهزت العجوز رأسها، وقالت في معابثة ماكرة: "بلى.. أنه ليبدو كشخص يبدد النقود على شيء آخر". ورمقت جانماريا بعينها الحاجة الرمادية، وهي ترميه بنظرة كتلك التي اعتادت أن ترميه بها مديرة النزل كلما تحدثت إليه.

وعاد عمه يقول: "كان من الأفضل أن تقول أنك بحاجة إلى ألف ليرة، لسبب يعرفه الله، ولا أحب أنا أن أعرفه.. كان هذا أكرم من أن تختلق هذا اللغو. آه من هذا الجيل الحديث! أنني كنت أدرك أنه أقل مما يذيعون عنه!"

وود جانماريا أن يحرجه، فيأخذه بقوله. ومن ثم قال مؤكدا: "حسنا، إذن.. ليكن ما ترى. إنني بحاجة إلى ألف ليرة.. بحاجة عاجلة إلى هذا المبلغ، فهل تستطيع أن تقرضنيه؟"

ورأى عمه يشير دلالة الرفض، ثم يردف قائلا: "ليس بوسعي أن أقرضك ألف ليرة؟!.. لو أنني كنت أملك ألف ليرة، لكنت من أصحاب الأموال، كما يقولون في (روما).. ألف ليرة، وفي هذه الأوقات؟!من أين لي هذا المبلغ؟ هذه هي المشكلة. ثم إن اليوم يوم الأحد، والمصارف مغلقة!"

وكأنما كانت الدموع تجري في صوت جانماريا، وهو يقول: "إذن، فليس بوسعك أن تقرضني؟"

- لقد قلت لك أنني لا أستطيع، ولكن..

والتفت نحو الأميرة، في حركة مازحة، وهو يقول: "ولكن لك أن تسأل الأميرة، فإن قلبها قد للان لك فعلا، وربما كان لديها المبلغ في كيسها..."وعندئذ، أبرقت عينا جانماريا بالأمل، فلما رأت العجوز ذلك، اشتد بها الاستياء، وأسرعت تلوم ماتيا قائلة: "لابد أنك جننت يا ماتيا.. يا للفتى المسكين!.. لقد كنت على استعداد لأن أمنحه المبلغ فعلا. ولكن ألف ليرة مبلغ باهظ في هذه الأوقات العصيبة، كما تقول..."

وقال جانماريا لنفسه: "من الجلي أنه لن يعطيني شيئا، ولو أنني مكثت، فسأجعل من نفسي أضحوكة". وكانت هذه الفكرة كافية لأن ترد إليه الهدوء الذي كانت سخرية عمه، وغضبه هو لخيبة أمله، قد أفقداه أياه. لذلك أسرع ناهضا، وقال: " أسمح لي بالانصراف يا عمي!"

فقال عمه وهو ينهض بدوره: "آه، لا.. لا!"

ولكن جانماريا أصر قائلا: "بل اسمح لي بالانصراف".

وانحنى ليقبل اليد التي بسطتها إليه السيدة العجوز.. فقالت هذه: "يجب أن تأتي لزيارتي. إنني أقيم في رقم ٧ بميدان كامبيتيللي. ولا تظن أن عمك قاس، بل إن كل ما في الأمر أنه مولع بالمزاح. ثم لا تنس أنه برفضه أعطاءك النقود، ربما منعك من الإقدام على عمل ينم عن سفه. إنني أراهن على أنك تريد المبلغ لأمر يتعلق بامرأة!"

وهنا قال عمه، وهو يمزح إلى النهاية: "كان من الخطأ أن لا تذكر لي ذلك بصراحة، لأنني –في هذه الحال– كنت خليقا بأن أرفض أعطاءك المبلغ.. كذلك!". ولكنه بدا مرتاحا لانصراف ابن أخيه، ولم يرافقه إلى أبعد من الغرفة المجاورة.

فهناك، برز الخادم ذو الحلة الرمادية، وكأنما انشقت عنه الأرض. وأسرع "جانماريا" إلى البهو، وهو يتحرق غيظا وشعورا بالصغار، فارتدى معطفه في عجلة محمومة، وغادر المكان.

"والآن.. ترى بأي وجه أقابل "سانتينا"، وأقول لها: لشد ما أنا آسف، إذ عجزت عن أن أدبر المبلغ"؟.. كان هذا هو ما جال بخاطر "جانماريا"، وهو يشق طريقه خلال الطرقات، ميمما شطر النزل.. وأحس بأنه لن يبدو كمدع مغرور فحسب، بل إنه كان –فوق هذا– مذنبا، ارتكب ذنبا عظيما.. فقد تخلي بقسوة عن فتاة فقيرة اعتمدت عليه، وتطلعت إليه كمنقذ ومحرر!

ومع أن هذه الأفكار المريرة طردت من ذهنه صورة ذلك الاستقبال الجافي الذي لاقاه من عمه، إلا أنها ضاعفت من حنقه على عمه، ومن شعوره بالحسرة من أجل "سانتينا".. على أنه – حين أشرف على البنسيون– كان أكثر شعورا بالخزي والمهانة، منه بالحنق والغضب. وكان –إلى جانب ذلك– يشعر بالإرهاق، من جراء التجارب والأحداث المتباينة، التي مرت به في هذا اليوم المشئوم من أيام الأحد.. كان يشعر بأنه منهك القوى، مهشم الأعصاب، حائرا مشتت الحواس.. كان يشعر بأنه فتي صغير، بعد أن كانت النشوة قد أغرته بأن يعتقد أنه أصبح رجلا، عزيز الجانب، واثقا من نفسه. ثم جاءت القشة الأخيرة، لتتم انهيار اعتداده بنفسه.. وكانت حدثا غير ذي قيمة –في حد ذاته– ولكنه كان حاسما، لارتباطه بالوقت.. ففي اللحظة التي بلغ فيها حزنه وتعاسته أقصاهما –وهي اللحظة التي ولج فيها بهو النزل– دوى الرنين المعدني الأجوف العميق، المؤذن بالعشاء.. وقد اعتاد دوما أن يكره هذا الضجيج السخيف، لأنه كان يبدو وكأنه نذير يوحي بشر مستطير لا يدري كنهه، وليس مجرد تنبيه إلى موعد وجبة متواضعة، في نزل يسوده جو عائلي. فلما انبعث الدوي

المشئوم، في تلك اللحظة بالذات، إذا به يحطم أعصابه المتعبة تحطيما، إذ رسم أمام عينيه صورة حية لقاعة المائدة، التي لابد أن يكون النزلاء قد خفوا إليها، وبينهم نيجريني، والمرأة كوكاناري، و"سانتينا"!

وأسوأ من هذا، أن "نيجريني" سوف يوجه إليه الحديث، من حيث يجلس إلى مائدته، بما له من تودد وتملق المخادعين.. ولسوف تبتسم إليه المرأة كوكاناري وتحملق فيه بعينين ملطختين بالكحل.. وربما كانت في انتظاره مزحة جديدة، كتلك الدعابة التي أكل فيها الصابون!.. ثم، وفي خلال كل هذا، ستكون هناك "سانتينا"، ترمقه بنظرات متسائلة، زاخرة بالأمل وبالقلق!

كل هذه الخواطر راحت تتوالى في ذهنه، تطارد كل واحدة منها الأخرى، بينما كان الرنين يتتابع في الردهات، وكأنما كانت الخادم –الموكلة بطرق الصفحة المعدنية– تطرقها في عنف نكاية به!.. وراحت الطرقات تزداد ارتفاعا باطراد، حتى بلغت أقصاها، ثم تلاشت بعد طرقتين أو ثلاث طرقات نهائية. وما إن عاد السكون يسيطر على الردهات، حتى استحث "جانماريا" ذهنه على اتخاذ قرار سريع، هو: أن يتفادي رؤية "نيجريني" و"كوكاناري" و"سانتينا، وبقية النزلاء.. وأن يطلب إحضار العشاء إليه في حجرته.. ولو الليلة فقط!

وخطر له أن ينهي هذه الرغبة إلى إحدى الخادمات، ولكن عينيه وقعتا – في تلك اللحظة– على كلمة "المكتب" على اللوحة المثبتة إلى باب حجرة المديرة، فتراءى له أن أسرع الطرق وأسهلها، هي أن يخطر المديرة برغبته. لذلك سعى إلى بابها وطرقه. وفي هذه المرة، سبق انبعاث الصوت العذب المغرد بكلمة "ادخل"، تباطؤ طويل، وحفيف ثياب تخلع أو تلبس، وخطوات قدمين عاريتين على البساط. ثم سمع الصوت المنغوم، فدفع الباب، ودخل.. والمديرة تقف إلى جوار المدفأة، التي كانت تستعر في موقدها نار عالية اللهب.. وبدلا من الثوب

الأسود المعهود. كانت المديرة ترتدي ثوبا منزليا طويلا، وردي اللون، وشيت حوافه بالفرو الأبيض. ومن الطريقة التي كانت تشد بها الثوب حول خصرها، ومن شعرها المشعث، ومن التورد الخفيف الذي شاب خديها الشاحبين ومن بعض قطع الثياب الداخلية، التي لم تجد وقتا لاخفائها، فتركتها ملقاة على الأريكة.. وتبين "جانماريا" إن المديرة لم تكن قد استكملت ارتداء ملابسها.. ووقع على اكتشاف بدا له مهما، وإن لم يدر السر في أهميته.فقد لاحظ أنها في وقفتها المنتصبة، وهي في ثوب المنزل، وقد بدت مشعثة غير متخذة زينتها، ومتخيلة عن هدوئها العميق المألوف.. لاحظ أنها كانت وافرة الجمال. وسمع نفسه يقول، وهو مرتبك: "لكم أنا آسف، ولكني شئت أن أقول أنني لم أتناول العشاء الليلة في قاعة الطعام، وإنما سأتناوله في حجرتي".

ولم تكن المرأة قد تمالكت نفسها بعد، ولا اختفت الحمرة الخجلي من وجنتيها تماما.. بينما كان صدرها العريض، يصعد زفرات حافلة بالعواطف الجياشية. وتطلعت إلى "جانماريا" في صمت ثم قالت: "ولماذا تريد أن تتناول الطعام في غرفتك؟.. أفهذا لأنك تشعر بوعكة؟"

واضطرب "جانماريا"، وقد تولاه شوق صبياني، إلى أن يفضفض إليها بكل أمره. وأجاب والعبرات تحشو حلقه: "بل أنني بخير تام، ولكنني منحرف المزاج، ولا أحب أن أري أحدا!".

ورددت المديرة برفق، وهي تتأمله: " أفهذا لأنك تلقيت أنباء سيئة من الأسرة؟"

فأجاب "جانماريا" باقتضاب: "لا، وإنما لسبب آخر!"..

وكان أعجب ما في الأمر، أنه لم يشعر بأتفه ميل إلى أن يبارح الغرفة

الصغيرة، المريحة، الدافئة. وأردف، دون تفكير: "بسبب المال!"

وقالت في إشفاق: "بسبب المال؟.. هل أنضب مواردك أن دفعت الحساب، في الليلة السالفة؟.. أتحب أن أرد إليك النقود؟.. تستطيع أن ترجئ الحساب إلى نهاية الأسبوع المقبل" وحار "جانماريا" في الجزم بما يحسن به أن يفعله. وتولاه انفعال طاغ.. أفيحسن به أن يفضي بكل أمره إلى امرأة لم يكد يعرفها؟.. ووجد نفسه يقول، في النهاية: "آه، لو أن الأمر اقتصر على هذا المبلغ، لكان هينا. ولكن المبلغ الذي يعوزني أكبر من هذا بكثير"

وتولت المديرة —فجأة— لهفة ملحاحة، فقالت: "قل لي كم يعوزك؟.. فإذا كان بوسعي، فسوف يسرني ان أقرضك إياه". ومرة أخرى، عاد "جانماريا" يسأل نفسه عما يحسن به أن يفعل.. على أن انفعالا عاطفيا غريبا، لأقبل له بالسيطرة عليه، ازدحم في حلقه، وشعر بنفسه مدفوعا إلى أن يتخلص منه بأن يفضفض إلى المرأة بسره، كما لو كانت إما رءوما حانية. لذلك قال بصوت مختنق، وهو يحدق في عينيها السوداوين الثابتتين: "إنني أحتاج إلى ألف ليرة"..

وظلت لحظة صامتة، وهي ترمقه في قلق. وخطر لجانماريا أن المبلغ كان ضخما، فقال وقد تضرج وجهه: "أنك جد كريمة، ولكنك قد لا تستطيعين أن تقرضيني هذا المبلغ، ولذلك..". وأشار بيديه في حركة عصبية، وكأنه يريد أن يقول: "لذلك أرجو ان لا تشغلي بالأمر!". على أنه لم يقو على الكلام، وظل بادي الاضطراب والاستياء.. وفجأة، تقدمت المرأة خطوة نحوه —وكأنها تسير في نعاس، مسلوبة الإرادة— ورفعت إحدى ذراعيها نحو "جانماريا". وشعر الفتي بغتة بلمسات تلك اليد الرطبة الرقيقة، تمسح على شعره وخديه. وسألته أخيرا، دون أن تكف عن لمساتها الرفيقة: "هل تسر حقا، إذا أنا أقرضتك النقود؟" ..

وتضرج وجهه، إذ رمقته المرأة بنظرة تصرخ بالضراعة. ثم سحبت يدها

بسرعة، وكأنما لسعتها نار حامية، وكشفت اللمسات الحانية لجانماريا عن سبب المسلك الغريب الذي أبدته المديرة نحوه. فقال لنفسه: "إنها تحبني!" ولم يدر أيغتبط لذلك، ويستجيب لشعورها؟.. ولكن الشيء الذي كان يدريه عن يقين هو أن شعور المرأة نحوه، قد انبعث في اللحظة المناسبة، وإنه من الممكن أن يفيد منه. فقد كان من الجلي أنه ليس بحاجة إلى أكثر من أن يحتمل هذا الشعور، حتى يحصل على النقود التي يريدها.. لذلك أجاب وهو مبهوت لجرأته، عاجز عن أن يصرف نفسه عن التطلع إلى عيني المرأة بنظرات مباشرة، فيها تسلط، وفيها تملق.. في آن واحد: "أجل، لسوف أسر كل السرور، لأنني بحاجة ماسة إلى المبلغ ". أولته ظهرها صامتة، وسارت إلى المكتب، ففتحت أحد أدراجه، وأخذت تنبش فيه. ولكن شكا غير مرتقب من وحي تجارب السنين الطويلة أوقفها عن العمل فجأة، فوقفت جامدة، ويداها في الدرج.. وقالت أخيرا، وهي تلتفت نحوه، نصف التفاتة: "ولكن، أواثق أنت حقا، من أنك سترد إلى المبلغ؟" وما إن سمع هذه الكلمات، حتى اندفعت إلى خديه حمرة عميقة، وقال لنفسه: "أنها لا تثق بي!" وتولته رغبة طاغية في أن يقدم لها ضمانا يؤكد أمانته. وجعله الحنق والارتباك يتردد لحظة، ثم قال: "انتظري ثانية واحدة، لسوف أعود حالا".

وغادر الحجرة عدوا إلى غرفته. وهناك، تناول حقيبة ثيابه وقلبه يفيض بالغضب، وراح ينتزع الأوراق التي كانت تملأها، حتى عثر على علبة جلدية سوداء، احتوت على أزرار لكمي وياقة القميص رصعت بأحجار ثمينة كانت ملكا لأبيه. وأسرع إلى غرفة المديرة، وهو يجري في خطوات مجنونة، واندفع داخلا في هياج، دون أن يطرق الباب، فرمى العلبة على المكتب، وقال: "إن هذه تساوي ثلاثة آلاف ليرة، وربما أربعة آلاف.. خذيها، حتى إذا أعدت إليك

المبلغ رددتها إلي!" وكان يلهث، وقد تجهم واحتقن وجهه الصغير واشتدت حرارته، واتقدت عيناه السوداوان.. وبدلا من أن تحتج المرأة أو تعترض، رمقته مليا، ثم ابتسمت في عجب وحنان، وتساءلت في هدوء: "لماذا أنت صلب الرأس؟". وسكتت برهة، لتدفع إليه بالورقة المالية التي كانت قد أخرجتها من الدرج في غيابه، ثم قالت: "إنني لم أقل ما قلت إلا.. مجرد كلام. هاك النقود، وخذ أزرارك، فإن بوسعي أن أطمئن إليك بدون كل هذه.."

أسرع يدس الورقة المالية في جيبه، بيد أنه رفض أن يسترد العلبة، قائلا: "لا، استبقيها! تستطيعين أن ترديها لي عندما تستعيدين النقود. أما عن العشاء، فقد عدلت عن رأيي، وسأتناوله في قاعة الطعام. شكرا، وعمي مساء". ودار على عقبيه وغادر الحجرة.

وإذ صار في الردهة، أخرج حافظة نقوده من جيبه، وتناول منها الورقتين الماليتين الآخريين فطواهما مع الورقة التي أخذها من المديرة، ودس ثلاثتها في جيب "البنطلون" ثم سار في خطوات معتدة، فدفع باب قاعة الطعام، وولج.. وكان النزلاء قد فرغوا من نصف عشائهم تقريبا عند دخوله. وبادر نيجريني قائلا في حفاوة: "مساء الخير". ولكن "جانماريا" لم يجبه إلا هزة مقتضبة من رأسه، وسار إلى مائدته مباشرة. ولقد حيته "كوكاناري" بابتسامة، من فمها المليء بالأسنان الذهبية. بيد أن "جانماريا" تظاهر بأنه لم يرها وثبت بصره على "سانتينا".. رمقها بنظرة محملة بالمعاني، وكأنه يقول لها: "لقد حصلت على النقود!". ولاحظ أنها أصدرت إشارة مستترة، أوحت بها إليه بأنها أدركت ما كان يرمي إليه، فارتاح باله، وشرع في التهام طعامه.

وتخلفت المديرة عن الظهور في قاعة الطعام في ذلك المساء. على أن بال "جانماريا" كان منصرفا إلى "سانتينا" فراح يأكل ببطء، وكما لو أنه كان يستمرئ

كل لقمة. ومكنه هذا من أن يشهد كل النزلاء، وهم يبارحون قاعة الطعام واحدا بعد آخر. وكان آخر من نهضوا عن الموائد، هم "نيجريني" والمرأتان، فنهض "جانماريا"، واقترب من ثلاثتهم. وسألته كوكاناري، وهي تبسط إليه يدا بضة، مثقلة بخواتم ثمينة: "ما الذي كنت تفعله في هذا النهار، حتى أنك اختفيت عن أبصارنا.. أفكنت مدعوا في مكان ما؟" فأجاب جانماريا مراوغا: "لقد كنت أمارس تدريبي العسكري". وكانوا قد أصبحوا في الردهة. وكما حدث في اليوم السابق، سار "نيجريني" والمرأة "كوكاناري" أمام "سانتينا" و"جانماريا" ببضع خطوات، فأخرج الفتي الأوراق المالية من جيبه، ودسها في يد الفتاة، وقد طواها أربع طيات. وهمس: " الثلاثة آلاف ليرة، سأذهب إلى حجرتي، وأنتظرك هناك".

وإذ تناولت الفتاة الأوراق المالية، ضغطت يده بقوة، وهمست: "شكرا". وكانت ترتدي ثوبا رماديا من قطعتين، قريب الشبه من زي الرجال، لبست تحت سترته قميصا أبيض من الحرير، بدا تحت قماشة الخفيف ثدياها الصغيران المنتصبان، وهما يرتجان من حركاتها. وتمتم جانماريا موجسا، وقد رأى نيجريني وكوكاناري يتواريان خلف انحناءه في الردهة: "امنحيني قبلة!". وهم بأن يعانق الفتاة، ولكنها دفعته عنها وهمست: فيما بعد في غرفتك". ثم ابتعدت بخطوات خفيفة، وتوارت عن بصره. وشعر "جانماريا" بمرارة الإعراض، وبخيبة رجاء.. بيد أنه سار إلى غرفته، وتناول كتابا وعلبة سجائر، ثم استلقى على الأريكة، وراح ينظر مجيء "سانتينا". وطال انتظاره، وهو يقرأ دون أن يفقه كلمة واحدة، ويلقي السيجارة بمجرد إشعالها، ليعود فيتناول غيرها، فيفعل بها ما فعله بسابقتها.. وقد أرهف أذنيه يتسمع بهما في نهم كل حركة خارج الغرفة.. وكان ينهض من آن إلى آخر فيسير إلى الباب، ويرسل بصره متجسسا، في طول

الردهة الخالية. ويحصي دقات ساعة الكنيسة المجاورة، كلما انبعثت مسجلة مرور الوقت.

وطال به الانتظار كثيرا.. طال إلى الدرجة التي شعر معها بالغيظ، والقنوط.. وبعد أن استعرض ألف افتراض لتعليل تواني "سانتينا" عن موافاته بنوع من النعاس الأليم، المخدر، يسري إلى ذهنه، فيطرد عنه كل شعور آخر غير التبلد والخمول. وخيل إليه أنه ينتقل إلى فترة من الزمن، لا نهاية لها، ولا ضوء فيها.. فترة بدا له فيها أن الانتظار وخيبة الرجاء من الأمور الطبيعية التي لا مفر منها!

وكان يتمتم لنفسه بين الآن والآخر: " يا سانتينا؟. إنني هنا، أقبع في انتظارك!". وكان في نوم اليقظة المضطرب، أشبه بالمسافر في قطار –أثناء الليل– وقد عجز عن أن يدرك أمستيقظ هو أم نائم، ولكنه كلما توقف القطار، وسمع صوت عامل السكك الحديدية ينبعث وسط السكون الموحش كأنه النعيب، معلنا اسم المحطة يفتح عينيه، ويحاول أن يرسل بصره ليرى المكان الذي وصل إليه القطار، وليلقى نظره على العربة المغرقة في الظلام، والمسافرين الذين أسلموا رؤوسهم إلى الوسائد، وقد أحاط الرجال منهم ياقاتهم بمناديل بيضاء، بينما أطبقت النسوه أجفانهن في أغماض محكم!.. ويعجز المسافر أخيرا عن أن ينفض عنه النعاس، فينساب عائدا إلى نومه المضطرب، في اللحظة التي يعاود فيها القطار حركته، وتتوالى دقات دواليب العجلات بانتظام، وهي تمضي على القضبان دون كلل!

نهض "جانماريا" عن الأريكة، عند انتصاف الليل فسار إلى سريره وخلع عنه ثيابه في حركة آلية، ثم اندس بين الأغطية وبعد وهلة قصيرة، غرق في نعاس عميق!

واستيقظ في ساعة متأخرة من الصباح، على صوت موسيقي ناعم، خيل إليه أنه كان ينبعث في حلم، وليس في واقع.. وأحس بيد مستحيية، ولكنها مصرة على الأقدام، تتحسس خده وعنقه. فقال لنفسه —في الحال— دون أن يفتح عينيه: "لابد أنها سانتينا!".

وفتح عينيه، وهو موقن من هذه الفكرة، وقفز جالسا في الفراش، فإذا بألف خيط من النور تنتشر في الظلام الممزق، منسابة خلال ثغرات المصاريع الخشبية للنوافذ.. وعلى هذا الخيوط، تبين أن التي كانت تقف إلى جوار وسادته لم تكن سانتينا.. وإنما كانت مديرة المنزل، في رداء منزلي.

وقالت بصوت ناعم: "أرجو أن لا أكون قد أيقظتك قبل الموعد الذي كنت تريده.. ولكن الساعة بلغت العاشرة!" فهتف جانماريا في ارتباك: "آه، لا.. لقد كنت مستيقظا في الواقع". وأسرعت يداه تحكمان أزرار (بيجامته) على صدره العاري.

وفي حركات بسيطة، غير متكلفة ولا مصطنعة، أضاءت المصباح الذي كان على المنضدة المجاورة للسرير، فانساب منه ضوء أصفر واهن. ثم جلست بنصف جسمها على حافة الفراش، وشرعت تقول في هدوء، وهي تتأمل يديه باهتمام رصين: "إنها لجرأة مني أن آتي إلى حجرتك بهذا الشكل .. وما كنت لأقدم عليه، لو أن ما حدث لم يكن أمرا غير عادي!"

وأمسكت لحظة، ثم سألته: "أتعرف الآنسة رينالدي؟.. لقد فرت أثناء الليل" ، وفتح جانماريا عينيه على وسعهما، في دهشة وذهول وعادت المديرة تكرر عبارتها، وقد بدأ يلوح في صوتها شيء من الرضي والارتياح: "فرت أثناء الليل.. ويبدو أنها انطلقت في سيارة، مع شاب أسمر كثيرا ما اعتادت أن تخرج معه. وقد فرت بكل مجوهرات المرأة التي كانت تقيم معها، وبكل نقود ونفائس

صديقهما الأنيق.. ذلك الذي يدعي نيجريني!" وراح "جانماريا" يفرك عينيه بيديه، وقد خيل إليه أنه لا يزال في حلم، وقالت: "ولكن، ماذا...؟"

فمضت المديرة تقول في هدوء وتؤدة: "يبدو أن تلك المرأة لم تكن أمها، وإنما هي امرأة مبتذلة تدعي.. انتظر.. كوكاناري!.. وكان نيجريني شريكا لهما.. ولقد اجتمعوا على استدراج الناس وابتزاز أموالهم. لقد عرفت كل هذا، لأنني وجدتكوكاناري تبكي وتقول أن تلك الـ "رينالدي" مخلوقة جاحدة، كما كان نيجريني يصرخ، كمن فقد رشده. ومن الواضح أن الفتاة "رينالدي" فعلت بهما ما علماها أن تفعله بالغير. فإلى جانب مبلغ كبير من المال سرقت علبة سجائر نيجريني، وساعته، ودبوس رباط عنقه، وعدة أشياء أخرى، كما سرقت خواتم كوكاناري.. على أن الذي أثار شكوكي فيهما، هو أنهما أبيا أن أخطر البوليس. ومن الواضح أنهما يخشيان أن تفتضح كل أعمالهما الشريرة، إذا ألقي القبض على الفتاة "رينالدي".. ولقد أمرتهما بأن يحزما متاعهما ويغادرا النزل قبل أن ينتصف النهار!"..

وكانت المديرة تروي هذه القصة في هدوء بالغ، ولكنها ظلت توجه إلى "جانماريا" نظرات غريبة، تجمع بين الأسى والتساؤل. حتى إذا أمسكت عن الكلام، راحت تتأمله وكأنها تتوقع منه تعليقا.

والواقع أن ذهن "جانماريا" خلا من أية فكرة عما كان ينبغي أن يقال. ولم يشعر بالاستياء، بقدر ما شعر ببرودة جليدية تسرى في كيانه، وأحس فجأة بأنه قد كبر في السن، وبأن شوقه المتأجج نحو "سانتينا" قد تهشم، تاركا خلفا فراغا جليديا. واستطاع أن يتبين قيمة هذه التجربة، في أكمل صورها. ولكنه عجز عن أن يمضي قيد شعرة بعد إدراك غلطته. وقطع عليه تأملاته المبهمة لموقفه، صوت المديرة العذب، وهو ينبعث في خفوت ناعم، وعيناها لا تتحولان عن

وجهه: "لقد هربت الفتاة "رينالدي" وإلى جانب ما أخذته من مقتنيات شريكيها، أخذت الألف ليرة التي أقرضتك إياها" ولم يقو جانماريا على الكلام.. وشعر برغبة طاغية في أن يخفي وجهه في غطاء الفراش.. وهز رأسه، ثم نكس وجهه المتضرج، الملبد بالأسي والانفعال.

واستطاع أخيرا أن يقول: "هو ذلك، ولكن.. لا تخالي أنك لن تستردي نقودك ثانية!"

فأجابت المرأة في لهجة مفعمة بالأسي، وبالتأنيب الحزين: "وما قيمة نقودي؟"

وهنا رفع "جانماريا" عينيه صوبها فرآها تهز رأسها بتؤدة، واسترحام، وكأنها تقول: "لماذا تأبي أن تفهمني؟".. وألفاها في الوقت ذاته تضع على المنضدة المجاورة للسري، شيئا أسود.. علبة الأزرار التي تركها لها في الليلة السالفة. كذلك لاحظ أنها زحفت على السرير مقتربة منه، حتى أصبح صدرها البارز، المنتصب الثديين، يمس ذراعه تقريبا.

وفجأة أحس تحت وطأة آماله المحطمة، بجاذبية عنيفة نحو هذه المرأة الرقيقة، الرصينة وكان إحساسه أشبه بنار تتوارى تحت هشيم، ثم اندلعت فجأة، فأرسلت ألسنة عالية من اللهب!.. وخيل إليه أنه كان يحبها طيلة الوقت.. بل وفي أشد لحظات شوقه نحو "سانتينا".. أجل، فقد كان يشعر إذ ذاك _ وإن لم يفطن إلى شعوره- بأنها بهدوئها وشحوبها، القوة التي تتعادل مع تلك الفتاة الفاجرة اللعوب، محاولة أن تقر توازن عواطفه!

وإذ اختمرت هذه الفكرة في ذهنه، مد يده، وراح يتحسس خديها بأصابعه، بنفس اللمسات اللطيفة الرقيقة، التى حظى بها منها في الليلة السالفة

واستطاع أن يرى جيشان عواطفها تحت لمساته الخفيفة.. وأخذت تغمض عينيها في استمراء ولذة، وكأنها تستعذب مذاق المتعة التي طال بها الشوق الطاغي إليها، ثم حصلت أخيرا عليها. وارتكزت بكل من يديها إلى أحد جانبي جسم "جانماريا"، دون أن تفتح جفنيها اللذين أطبقا بشدة على عينيها، وقد شحب وجهها.. وتركت ثوبها ينحسر عن ثدييها العاريين.. ومالت عليه، مسلمة إياه شفتيها.

# رجل!

من المؤكد أنه بوسع "أجنيسي" أن تنذرني، بدلا من أن ترحل هكذا، دون أن تقول شيئا.. بل دون أن تقول لي: "اذهب إلى الجحيم". لا أزعم أنني كامل الصفات، ولو أنها انبأتني بما كانت في حاجة إليه، لاستطعنا أن نبحث الأمر معا. ولكنها لم تفعل.. لم تنبئني بشئ البتة.. لم تقل كلمة واحدة، خلال عامين من الحياة الزوجية.. ثم، إذا بها تتسلل – ذات يوم– كخادم عثرت على عمل أفضل، مستغلة لحظة كنت فيها متغيبا عن البيت.. أجل، لقد رحلت.. وما زلت إلى اليوم –وقد انقضت ستة أشهر على رحيلها– لا أفقه لهذا الرحيل سببا!

ففي ذلك الصباح، ابتعت لوازم البيت، من السوق المحلية الصغيرة إذ أنني أحب أداء المشتريات بنفسي، فأنا أعرف الأسعار، وأعرف ما أبتغي، وأميل إلى المساومة والجدال، وإلى الفحص والاختيار، وأتوق إلى أن أعرف نوع الماشية التي يأتي منها شوائي، ومن أية سلة اجتلبت تفاحتي).. ثم خرجت مرة أخرى، لاشتري ياردة ونصف الياردة من شريط يحاك إلى حافة ستار غرفة المائدة. ولما لم أكن راغبا في أن أنفق أكثر من مبلغ معين، فقد تنقلت بين عدة محلات قبل أن أعثر على الشيء الذي كان يروق لي تماما، في متجر صغير بطريق (أوميلتا).

وكانت الساعة حوالي الحادة عشرة والثلث، عندما عدت إلى البيت. فيممت شطر غرفة المائدة، لأقارن لون الشريط بلون الستار، وإذا بي أرى – لفوري– المحبرة والقلم ورسالة على المائدة. وألحق أن أول ما اجتذب اهتمامي دون كل هذا، هو بقعة من المداد على غطاء المائدة. فقلت لنفسي: "ما الذي

حملها على مثل هذا الإهمال الأرعن؟.. لقد أحدثت بغطاء المائدة بقعة!".

ورفعت المحبرة، والقلم، والرسالة. ثم رفعت غطاء المائدة، وذهبت به إلى المطبخ، وهناك تحايلت على إزالة البقعة بأن رحت أفركها بالليمون بشدة. ثم عدت إلى قاعة المائدة، وأعدت غطاء المائدة إلى مكانه، وإذ ذاك فقط، تذكرت الخطاب.

فإذا به موجه إلى، باسمي "الفريدو" ففضضته، وقرأت فيه: "لقد أديت أعمال البيت. وفي وسعك أن تطهو لنفسك الغداء، فأنت متعود ذلك على كل التعود.. وداعا، فإنني عائدة إلى دار أمي– اجنيسي".

ومكثت برهة لا أفقه شيئا، ثم أعدت تلاوة الرسالة، فلم يلبث معناها أن أشرق على ذهني أخيرا: لقد رحلت "أجنيسي"، وهجرتني بعد حياة زوجية عمرها عامان!.. وبحكم العادة، وضعت الرسالة في درج صوان أوات المائدة (البوفيه)، حيث اعتدت أن أحفظ الايصالات والرسائل. ثم جلست على مقعد بجوار النافذة. ولم أدر فيم أفكر، إذ أنني لم أكن مهيئا لهذا الظرف، وما كنت لاعتقد في وقوعه.. وفيما كنت أجلس شارد البال، على هذا النحو، وقع بصري على الأرض، فرأيت ريشة بيضاء صغيرة، لابد أنها طارت من المنفضة، عندما كانت "أجنيسي" تنفض الغبار عن الأثاث. فالتقطت الريشة، وفتحت النافذة فطوحت بها منها. ثم تناولت قبعتي وغادرت البيت!

وبينما كنت أسير، وأنا أخطو على حجر –من أحجار رصف الطرق– وأتجاوز آخر، بحكم عادة رذيلة علقت بي، شرعت أسائل نفسي عما يحتمل أن أكون قد فعلت حتى تهجرني "أجنيسي" بمثل هذا الأسلوب المجرد من الرحمة، وكأنها صدرت في ذلك عن تعمد الإساءة إلي.

وقلت لنفسي: "لنر –قبل كل شئ– ما إذا كان بوسع "أجنيسي" أن تعيب على أي نوع من عدم الوفاء، مهما يكن تافها؟!". وأجبت نفسي في الحال: "أبدا. البتة!" والحق أنني لم أكن يوما متهوسا بالنساء، فلست أفهمهن، ولا هن يفهمنني.. ومن الممكن أن يقال أنهن لم يعدن على قيد الوجود بالنسبة لي –منذ يوم زواجي– إلى الدرجة التي جعلت "أجنيسي" تتعمد إثارتي –فعلا– بأن تسألني من وقت إلى آخر: "ما الذي تراك فاعله، إذا أنت وقعت في حب امرأة أخرى؟". فكنت أجيب: "هذا مستحيل، فإنني أحبك، وسوف يلازمني هذا الشعور طيلة عمري!".. وإني إذ أذكر هذا مرة أخرى، أكاد أخال أن هذه الـ "طيلة عمري" لم تكن تروق لها، بل إنها كانت –على العكس– تعبس وتخلد إلى الصمت.

وانتقلت إلى ناحية من الأفكار مختلفة تمام الاختلاف عن تلك.. فقد كنت تواقا إلى أن أتبين ما إذا كان من المحتمل أن تكون "أجنيسي" قد تركتني لدواع تتعلق بالمال، وبمعاملتي إياها بوجه عام، في الواقع.. على أنني وجدت ضميري مرتاحا، في هذه الناحية كذلك.. فمن الحقيقي –فيما يتعلق بالمال– أنني لم أكن منحها نقودا إلا لدواع استثنائية، ومع ذلك.. فأية حاجة كانت بها إلى النقود؟ لقد كنت بشخصي قريبا منها دائما، على استعداد لأن أتولى الدفع بنفسي!.. أما عن الطريقة التي كنت أعاملها بها، فواعجبي!.. لم يكن فيها أية قسوة، وبوسعك أن تتبين ذلك بنفسك.. السينما مرتان في الأسبوع، والمقهى –مرتان في الأسبوع كذلك– بغض النظر عما إذا كانت تتناول شيئا من المثلجات، أو مجرد قدح من القهوة.. ثم مجلتان في الشهر، والصحيفة في كل يوم.. وكانت "الأوبرا" تضاف إلى القائمة في الشتاء.. وعطلة نقيضيها في بيت أبي –في (مارينو)– في الصيف.. هذا فيما يتعلق بالمرفهات، فإذا انتقلنا إلى

موضوع الثياب، وجدنا أن "أجنيسي" كانت أقل شكوى –في هذه الناحية– منها في النواحي الأخرى.. فقد كنت على استعداد دائما لإجابتها، إذا ما احتاجت إلى شيء، سواء كان هذا الشيء مشدا لصدرها، أو كان زوجا من الجوارب، أو منديلا.. إذا كنت أرافقها إلى الحوانيت، وأساعدها في اختيار الشيء، وأدفع الثمن بغير تذمر. وكذلك كان أمري مع حائكات الثياب، أو بائعي القبعات، فما حدث مرة واحدة أن قالت: "انني بحاجة إلى قبعة.. إنني بحاجة إلى ثوب"، ولم أجبها قائلا: "هيا بنا! سأذهب معك"! ولابد من أن أقر –فوق هذا– بأن "أجنيسي" لم تكن مسرفة في المطالب، فقد كفت تماما عن طلب الثياب، بعد العام الأول من زواجنا. وأصبحت أنا –في الواقع– الذي يذكرها بأنها كانت بحاجة إلى هذه القطعة من الثياب، أو إلى تلك!.. ولكنها كانت تجيب بأن هذا ليس بالأمر المهم، إذ أن لديها ثيابا من العام السابق.. حتى أنني اعتقدت –بأنها مختلفة، عن سواها من النساء، وأنها لم تكن تحفل بأناقة ملبسها!

وهكذا لم يكن للدواعي علاقة بالمسائل القلبية أو المالية، فبقي ما يعبر عنه المحامون بـ "عدم التوافق في الطباع" ومن ثم فقد ساءلت نفسي: أي عدم توافق في الطباع يمكن أن يوجد، ونحن لم يدب بيننا أي شقاق، ولو واحد، خلال عامين؟.. لقد كنا معا، على الدوام، ولو كان لهذا الـ "عدم التوافق" أي وجود، لكان قد نم عن نفسه!.. بيد أن "أجنيسي" لم تعارضني يوما في أمر ما، بل إنها –في الواقع– لم تكن تتكلم تقريبا!.. وكانت لا تكاد تفتح فمها خلال بعض الأمسيات التي كانا نقضيها في المقهى أو في البيت، بل كنت أنا الذي ينفرد بالكلام كله!.. ولست أنكر أنني أحب الكلام، وأحب أن أسمع نفسي وأنا أتكلم، لا سيما حين أكون مع شخص تربطني به روابط الود الوثيقة!..

وطريقتي في الكلام تتسم بالهدوء، والتناسق، فلا رفع الصوت ولا خفض، وإنما انسيابه معقول، فإذا هاجمت موضوعا، حللته تحليلا، من أعلاه إلى أسفله، ومن كل نواحيه. والموضوعات التي أفضلها هي التي تتعلق بالشؤون المنزلية. فأنا أحب تبادل الحديث حول أسعار السلع، وحول ترتيب قطع الأثاث، وحول الطهو والتسخين، وحول كل هذه السفاسف في الواقع!.. فلست أتعب قط من الحديث في هذه الأمور، بل إنني أوليها اهتماما بالغا، حتى أنني كثيرا ما لا أتمالك أن أعود إلى إثارتها من جديد، مستخدما نفس الحجج.. وهذه هي الموضوعات التي تصلح للحديث مع النساء بالتأكيد –إذا شئنا أن نكون منصفين– وإلا ففيما يتحدث المرء عداها؟.. وعلى أية حال، فإن "أجنيسي" اعتادت أن تنصت إلي في إصغاء.. أو هكذا كان يبدو لي، على الأقل!.. مرة واحدة –وكنت أشرح عمل سخان الماء الكهربائي– هي التي فطنت فيها إلى أن "أجنيسي" استسلمت للنعاس!. فما كان مني إلا أن أيقظتها، وسألتها: "ما الذي جعلك تملين؟". فأجابتني لفورها: "كلا، إنما أنا متعبة. إذ أنني لم أحظ بنوم جيد في الليلة السالفة!"

وللأزواج عادة مكاتب أو متاجر يذهبون إليها، أو لا يكون لهم شئ من هذا، فهم يخرجون مع أصدقائهم. أما أنا، فقد كان مكتبي، ومتجرى، وأصدقائي، ينحصرون جميعا في.. "أجنيسي". فما تركتها وحيدة لحظة واحدة، وإنما كنت أمكث إلى جوارها، حتى وهي تطهو!.. وأنا مولع بالطهو، وقد اعتدت –قبل الوجبات، من كل يوم– أن ارتدى مرولة، وأعاون "أجنيسي" في المطبخ. وكنت أؤدي كافة الأعمال، فأقشر البطاطس، وأنتزع البازلاء من قرونها، وأعد "التقلية"، وأراقب أواني الطهو، وهي على النار، وكنت أتقن معاونتها حتى أنها كثيرا ما كانت تقول لي" "اسمع، تول أنت العمل.. فإنني أشعر

بدوار، وسأذهب لأنام!" وإذ ذاك كنت أؤدي الطهو بنفسي، بل إنني كنت قادرا على أن أجرب أعداد ألوان جديدة من الطعام، مستعينا بكتاب الطهو!

ومما يرثي له أن "أجنيسي" لم تكن أكولة، بل إن رغبتها في الأكل تضاءلت في الفترة الأخيرة، فكانت لا تكاد تمس الطعام.. ولقد قالت لي ذات مرة.. على سبيل المزاح طبعا: "لقد أخطأت لأنك خلقت رجلا.. فأنت امرأة ربة بيت، حقا!".. وجدير بي أن أقر بأن هذه الملاحظة كانت تنطوي على شيء من الحقيقة، إذ أنني أحب –إلى جانب الطهو– الغسل، والكي، والحياكة.. بل إنني –في لحظات فراغي– أعيد تطريز المناديل التي تستخدم في البيت، والمفارش.

وأعود فأكرر أنني لم أكن أفارقها، حتى عندما كانت إحدى صديقاتها، أو أمها، تفد لزيارتها.. بل ولا عندما تملكتها الرغبة –لسبب ما– في أن تتلقى دروسا في اللغة الإنجليزية، فقد رحت أبذل الجهود لكي أتعلم هذه اللغة البالغة الصعوبة، وذلك لكي أظل إلى جوار "أجنيسي"، أثناء الدرس! كنت شديد التعلق بها، إلى درجة أنني كنت أجعل نفسي عرضة للسخرية في بعض الأحيان.. كما حدث ذات مرة، إذ قالت لي "أجنيسي" بصوت خافت، قولا لم أتبينه –وكنا في مقهى– فنهضت في أثرها، إذ نهضت وتبعتها حتى بلغت دورة المياه، وإذ بالحارس يستوقفني قائلا أن ذلك القسم كان خاصا بالنساء، فليس لي أن أدخل!

أجل، إن الأزواج الذين على شاكلتي، لا يسهل العثور عليهم، وكثيرا ما كانت تقول لي: "إنني أريد الذهاب إلى المكان الفلاني، لكي أقابل فلانه أو فلانا، وهو شخص لا يروق لك". غير أنني

كنت أقول لها: "لا بأس.. سأذهب معك، فليس لدي ما يشغلي" وهنا

كانت ترد قائلة: "تعال،

فلست أجد مانعا من ناحيتي.. ولكني أتدرك بأنك ستسأم وتمل". ولكني لم أكن أسأم على الإطلاق.. وكنت أقول لها، فيما بعد: "أرأيت.. إنني لم أمل!". وهكذا كنا لا نفترق، في الواقع!

وفي غمرة التفكير في هذه الأمور، والتساؤل طيلة الوقت عما دعا "أجنيسي" إلى هجراني، دون أن أصل إلى جواب، بلغت متجر أبي.. وهو متجر تباع فيه السلع الدينية، ويقع على مقربة من ميدان (منيرفا). وأبي رجل لا يزال شابا، ذا شعر أسود مجعد، وشاربين أسودين.

وتحت الشاربين ابتسامة لم أدرك كنهه قط. ولعل رقته البالغة– إلى أقصى حد– وهدوءه، ودماثة أخلاقه على الدوان، راجعة إلى تعامله مع القساوسة وأهل التقوى. ولكن أمي –التي تعرفه تمام المعرفة– تقول أن أعصابه جميعا دفينة في أعماقه.

وعلى أية حال، فإنني ولجت الحانوت، ومررت بكافة الصناديق الزجاجية المليئة بالبخور والشموع والأوعية المباركة وسرت مباشرة إلى غرفة في مؤخرة الحانوت، حيث كان مكتب أبي. وكان منكبا على حساباته –كالعادة– وهو يقرض طرف شاربيه، أثناء التفكير. وقلت له بصوت متحشرج: "ابت.. لقد هجرتني أجنيسي!". وتطلع إلى، فخلت أنه كان يبتسم تحت شاربيه، ولكن.. لعل هذا كان مجرد وهم. وقال: "إنني آسف... بل إنني جد آسف ولكن كيف حدث هذا؟"

ورويت له القصة كلها.. واختتمت حديثي بقولي: "إنني مهموم لذلك، طبعا.. على أن الذي أود أن أعرفه –قبل أي شيء آخر– هو: لماذا تراها

هجرتني؟"

فسألني وهو بادي الحيرة: "أو لم تفهم السبب؟" –كلا

ومكث برهة صامتا، ثم قال وهو يتنهد: "إنني لآسف يا ألفريدو، ولكني لا أدري ما الذي ينبغي أن أقوله لك... إنك ابني، وإني لأحتملك وأحبك كل الحب.. أما زوجتك.. فهذه مسألة تعنيك أنت وحدك!"

– أجل، ولكن.. لماذا تراها هجرتني؟

وهز رأسه، ثم قال: "لو أنني كنت في مكانك، لما ألححت، ولما أوغلت في نبش الأمر.. أتركه على علاته!.. فيم يهمك أن تعرف الدواعي؟"

– أنه جد مهم لي.. بل هو أهم من كل شيء.

وفي تلك اللحظة أقبل قسيسان، فنهض والدي وسعي إليهما، وهو يقول لي: "عد فيما بعد.. وإذ ذاك سنتكلم في الأمر.. أما الآن، فأنا مشغول".

ولم تكن دار أم "أجنيسي" بعيدة، فهي تقوم في طريق (فيتوريو) وخطر ببالي أن الشخص الوحيد الذي يملك أن يشرح لي لغز رحيل "أجنيسي" هو "أجنيسي" نفسها. ومن ثم فقد ذهبت إلى هناك. وصعدت درجات السلم عدوا، فاقتدت إلى غرفة الجلوس. وبدلا من أن توافيني "أجنيسي" هناك، أقبلت أمها، وكانت هي الأخرى تملك متجرا.. كما أنها كانت بشعرها الأسود المصبوغ، وخديها الموردين، ومظهرها المصطنع، البسام، الماكر.. كانت امرأة لا أحتملها!.. وكانت ترتدي غلالة منزلية (روب دي شامبر)، وقد ثبتت وردة في صدرها. وقالت، إذ رأتني، بود مصطنع: "آه، ما الذي تصنعه هنا يا ألفريدو؟"

فأجبتها: "أنك لتعرفين سبب مجيئي.. لقد فارقتني أجنيسي".

فقالت بهدوء: "أجل، إنها هنا.. ما الذي ترى في الوسع عمله، يا بني العزيز؟ هذه أمور مألوفة ".

– ماذا؟.. أفهذا هو كل ما تبدينه لي من رأي؟

فتأملتني برهة، ثم سألتني: "هل أنبأت أبويك بالأمر؟"

– أجل، أنبأت أبي

– وما الذي قاله لك؟

وما علاقة ما قاله والدي بهذا الأمر، وما شأنها؟.. واجبت، على مضض: "إنك تعرفين طباع أبي.. إنه يقول أن من الخير لي أن لا أتمادي في نبش الأمر.."

– أنه على حق، يا بني العزيز.. لا توغل في النبش!

فصحت وقد بدأ الغيظ يتملكني: "ولكن، ما السبب الذي دعاها إلى أن تهجرني؟.. ما الذي فعلته لها؟.. لماذا لا تخبرني؟"

وفيما كنت أتكلم، وأنا في غمرة الغضب، وقع بصري على المنضدة، فإذا بها مكسوة بغطاء وضع في منتصفه مفرش أبيض مطرز، وفوق المفرش، كان ثمة إناء للزهور، به ورود حمراء. ولكن المفرش كان منحرفا عن وسط المنضدة.

وبحركة آلية، ودون أن أدري ما الذي كنت أفعله، إذا بي أرفع وعاء الزهور —وهي تنظر إلى مبتسمة، دون أن تجبيني– وأسوى المفرش، ثم أعيد الوعاء مكانه. وإذ ذاك، قالت: "أحسنت صنعا، فقد أصبح المفرش الآن في منتصف المنضدة.. إنني لم أنتبه إليه، أما أنت فقد لمحته لأول وهلة.. أحسنت صنعا.. والآن.. والآن، يحسن بك أن تنصرف يا ولدي العزيز!"

وكانت قد نهضت من مكانها، فنهضت أنا الآخر. وأردت أن أسألها عما

إذا كان بوسعي أن أرى "أجنيسي"، ولكني تبينت أن لا جدوى من وراء ذلك.. فضلا عن أنني خشيت أن أفقد شعوري –إذا رأيتها– فأفعل أو أقول ما ينم عن غباء.

ومن ثم انصرفت. ومن ذلك اليوم لم أر زوجتي قط. ولعلها ستعود يوما ما، إذ تبين أن الأزواج الذين على شاكلتي لا تصادفهم النساء في كل يوم من أيام الأسبوع. ولكني لن أدعها تجتاز داري، حتى توضح لي أولا.. السر في أنها هجرتني!

# فاتنة سائقي السيارات

إنني نحيف الجسم، عصبي المزاج، ذو ذراعين نحيلتين، وساقين طويلتين، كما أن بطني منبسطة، حتى أن سروالى (بنطلوني) لا يفتأ ينساب هابطا عنها. فالواقع أنني على النقيض تماما مما هو مطلوب لتهيئة المرء لكي يكون سائقا صالحا لقيادة سيارات النقل .. هل تأملت يوما سائقي سيارات النقل؟.. إنهم رجال ضخام الأجسام، عريضو المناكب، سمر السواعد، أقوياء الظهور والبطون. ذلك لأن سائق سيارة النقل، يعتمد –بوجه خاص– على ساعديه وظهره وبطنه.. يعتمد على ساعديه في إدارة عجلة القيادة، التي يكون محيطها –في سيارة النقل– معادلا لطول الذراع– تقريبا، والتي لابد أحيانا من إدارتها دائرة كاملة، في منعرجات الطرق الجبلية.. وهو يعتمد على قوة ظهره، ليصمد للتعب الذي ينجم عن الجلوس ساكنا ساعات تلو ساعات، في وضع واحد باستمرار، فلا يشعر بالألم يدب في ظهره، ولا بعضلاته تميل إلى التيبس.. ثم هو يعتمد على قوة عضلات بطنه، ليستطيع أن يمكث جالسا جامدا في مكانه، كصخرة غاصت في الأرض.

هذا من الناحية البدنية.. أما من الناحية الخلقية، فقد كنت أقل صلاحية للعمل كسائق لسيارة نقل، فإن سائق سيارة النقل يجب أن يكون بلا أعصاب، ولا نزوات، ولا حنين إلى الديار، ولا أية مشاعر رقيقة أخرى. فإن قيادة السيارة مهمة مرهقة، مضنية، تكفي لأن تقتل الثور، فما بالك بالإنسان! أما فيما يتعلق بالنساء، فعلى سائق سيارة النقل أن يكون كالملاح، فلا يفكر فيهن إلا قليلا.. وإلا فإنه لا يلبث من جراء اضطراره إلى الذهاب والإياب باستمرار أن

يصاب بالهوس. غير أنني ملئ دائما بالأفكار والشواغل، وأني لحزين بفطرتي، كما أنني أحب النساء!

ومع ذلك، فقد رغبت في أن أكون سائق سيارة للنقل –برغم أنها ليست الوظيفة الملائمة لي– وتحايلت حتى استخدمتني إحدى شركات النقل. وقد عينوا لمساعدتي ومرافقتي شابا يدعي "بالومبي"، كان –كما ينبغي الاعتراف– فظا جلفا، بالمعني الصحيح.. كان مثالا لسائق سيارة النقل.. لا لأن سائقي السيارات كثيرا ما يكونون بعيدين عن الذكاء، وإنما لأنه كان غبيا لحسن خلقه، فكان وسيارته قطعة واحدة. ومع أنه قد تجاوز الثلاثين من عمره، فقد ظلت تلوح عليه إمارات الفتي الذي سبق سنه. فكان له وجه غليظ السمات، وخدين مستديران، وعينان صغيرتان تحت جبين ضيق منحدر، وشق ضيق يمثل الفم ويشبه فتحة صندوق الإدخار (حصالة النقود) وكان مقلا في كلامه، بل يكاد لا يتكلم إطلاقا، فإذا تكلم آثر الهمهمة والزمجرة!

ولم يكن ذكاؤه يشرق إلا عندما يكون ثمة حديث عما يؤكل. وإني لأذكر مناسبة، دخلنا فيها فندقا في (اتيرى) على طريق (نابولي) وقد أمضنا التعب والجوع. ولم يكن ثمة ما يؤكل سوى (فاصوليا) مطهوة مع شرائح من لحم الخنزير، فلم أمسها لأنها لا تروق لي أما "بالومبي" فقد التهم منها وعاءين مليئين، ثم اضطجع في مقعده، ورمقني لحظة بنظرة جدية، وكأنه يوشك أن يذكر لي أمرا هاما. وما لبث أن قال أخيرا، وهو يمر بيده على بطنه: "لقد كان بوسعي أن التهم أربعة أطباق أخرى!".. تلك هي الفكرة الجليلة التي استغرق كل هذا الوقت في البحث عن تعبير عنها!

ولست بحاجة إلى أن أصور لك مدى سروري حين التقيت –لأول مرة بالفتاة– "ايتاليا"، مع هذا الزميل الذي كان كشخص صنع من خشب. وكنا في

تلك الفترة نقوم برحلات بين (روما) و(نابولي) ناقلين كل أنواع الحمولات المختلفة، من طوب، إلى فضلات الحديد المستعمل، إلى (بوبينات) ورق الصحف، إلى خشب، وفواكه، بل وقطعان صغيرة من الأغنام، كانت تنقل – بين آن وآخر– من مرعى إلى مرعى!

ولقد استوقفنا "ايتاليا" عند (تيراسينا)، وسألتنا أن نقلها إلى (روما) وكانت الأوامر تقضي علينا بأن لانقل مخلوقا. ولكنا بعد أن ملأنا أعيننا بمنظر الفتاة، اتفقنا على أن القاعدة لم تكن سارية في هذه المرة!.. وأشرنا إليها بأن تصعد، فقفزت بأشد ما تكون نشاطا وخفة، وهي تهتف: "مرحي لسائقي سيارات النقل. إنهم دائما كرماء!"

وكانت "ايتاليا" فتاة مثيرة، وما من كلمة أخرى لوصفها. كانت لها خاصرة طويلة، نحيلة، بدرجة لا يتصورها العقل، يعلوها صدر بارز بحدة –وكأنه متحفز للدغ، كالأفعي– تحت الصديري (البلوفر) الذي كانت ترتديه عادة، والذي كان ينسدل حتى ردفيها. كذلك كان لها عنق طوي، ورأس صغير أسمر، وعينان خضراوان واسعتان. وعلى النقيض من جذعها المسرف الطول، كانت ساقاها قصيرتين، بل ومعوجتين تقريبا، فكان مظهرها يوحي بأنها تسير وقد ثنت ركبتيها.. ولم تكن جميلة –في الواقع– ولكنها أوتيت شيئا أفضل من الجمال، وقد لمست الدليل على ذلك، خلال هذه المرحلة الأولى، عندما بلغنا (سيستيرنا) –ونحن ماضون في رحلتنا– وتسلم "بالومبي" عجلة القيادة. فقد دست الفتاة يدها في راحتي، وشدت عليها في قوة، ولم تفلتها إطلاقا حتى بلغنا (فاليتري)، وتسلمت القيادة من "بالومبي".

وكنا في الصيف، وفي حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر، وهي أشد فترات اليوم قيظا، فأصبحت يدانا لزجتين من العرق. ولكن الفتاة كانت ترمقني –بين

الفينة والفينة– بنظرة من تلكما العينين الخضراوين الشبيهتين بعين النور (الفجر)، فخيل إلى أن الحياة –التي ظلت طويلا لا تعدو مجرد شريط من الأسفلت– قد بدأت تبتسم لي من جديد.

فقد عثرت على ما كنت أنشد.. على امرأة أشغل بها بالي! وقد أوقف "بالومبي" السيارة بين (سيستيرنا) و(فاليتري)، وبارح مكانه ليتفقد العجلات، فانتهزت هذه الفرصة لأقبل الفتاة. فلما بلغنا (فاليتري)، تبادلت و"بالومبي" مجلسينا، وأنا قرير العين، إذ كان تماسك اليدين والقبلة غنما كافيا لي في ذلك اليوم!

ومنذ ذلك الحين، أصبحت "أيتاليا" تتصيدنا بانتظام –مرة أو اثنتين في الأسبوع– لنقلها من (روما) إلى (تيراسينا)، ومن هذه إلى تلك.. وكانت تنتظرنا قرب الأسوار –في الصباح– ومعها لفافة أو حقيبة أو شئ من هذا القبيل.

فإذا كان "بالومبي" هو الذي يتولي القيادة، فإنها كان تمسك بيدي طيلة الطريق، حتى (تيراسينا). وفي عودتنا من (نابولى)، كانت ترتقبنا عند (تيراسينا)، فتصعد إلى السيارة، وتعود اليدان إلى التعانق، كما تعود القبلات المسترقة، في اللحظات التي لم يكن بوسع "بالومبي" أن يرانا فيها، ولو لم تكن الفتاة راغبة!

وقصاري القول أنني وقعت في هواها تماما، وكان هذا راجعا –في بعض أسبابه– إلى أن عهدا

طويلا كان قد انقضى مذ شغفت بأية امرأة، حتى أنني فقدت هذه العادة.. ولقد بلغ من تدلهي أنه كان يكفيها أن تنظر إلى بطريقة معينة، فإذا عواطفي تجيش لفورها حتى لتتدافع الدموع إلى عيني، وكأنني طفل.. تلك كانت دموع الحنان، ولكنها بدت لي ضعفا لا يليق برجل، فرحت أبذل جهودا قوية

لكبحها، دون أن أوفق!.. وكنا نتكلم بصوت خفيض –أثناء قيادتي السيارة– منتهزين إخلاد "بالومبي" إلى النوم. ولست أذكر شيئا مما كنا نقوله.. مما يدل على أن حديثنا كان مجرد سفاسف وفكاهات ومناجاة عاشقين. على أنني أذكر أن الوقت كان ينقضي سراعا، حتى أن الشريط الأسفلتي الممتد بعد (تيراسينا) –والذي كان يبدو عادة وكأنه ممتد إلى الأبد– كان لا يلبث أن ينتهي، وكأنما بفعل سحر!..

وكنت أخفض السرعة إلى عشرين أو خمسة عشر ميلا في الساعة، تاركا كل شيء –حتى عربات المزارع– يسبقني.. ولكنا كنا لا نلبث أن نصل إلى نهاية الرحلة، فتفارقنا "ايتاليا"، على أن الأمر كان بالليل أفضل منه بالنهار، إذ كانت السيارة تمضي قدما وكأنها تسوق نفسها، وأنا أضع إحدى ذراعي على عجلة القيادة، بينما تحيط الذراع الأخرى بخصر "ايتاليا". فإذا انبعثت أضواء السيارات الأخرى، من خلال الظلام البعيد، في انبثاق وانطفاء متعاقبين، كنت أشعر بأن الإشارات الضوئية التي كنت أجيب بها، كانت كلمات تبين لأي فرد مدى سعادتي؟... وكأنها كانت تؤلف عبارة على هذا النسق: "إنني أحب ايتاليا، وايتاليا تحبني!".

أما "بالومبي" فإما فإنه لم يفطن إلى شيء، وإما أنه كان يتظاهر بأنه لم يلاحظ شيئا. والواقع أنه لم يحتج إطلاقا –ولا مرة واحدة– على كثرة رحلات "ايتاليا" هذه، بل كان يزمجر –على سبيل التحية– حين تقفز إلى السيارة، ثم يفسح لها مكانا لتجلس، وقد اعتادت دائما أن تجلس في الوسط، إذ كان على أن أظل أرقب الطريق، وأن انبئ بالومبي –عندما تخلو الطريق لنا– إذا كنا نسعى إلى تجاوز سيارة أخرى. بل أن "بالومبي" لم يعارض عندما رغبت –في غمرة افتتاني– في أن أكتب على الزجاج الأمامي للسيارة شيئا يمت بصلة إلى

ايتاليا. ولقد فكرت مليا، ثم كتبت بحروف بيضاء: "لتحيا ايتاليا!". بيد أن بالومبي كان من الغباء بحيث لم يفطن إلى المعنى المزدوج لهاتين الكلمتين، حتى سألنا سائقو السيارات الأخرى –مازحين– عن السر في أننا انقلبنا إلى وطنيين متحمسين بهذه الدرجة!.. إذ ذاك فقط، قال لي وهو ينظر إلى فاغر الفم، وقد أشرقت على وجهه ابتسامة "إنهم يظنونها ايتاليا البلد، وليست ايتاليا الفتاة.. إنك لذكي. وقد كانت هذه فكرة وضاءة من أفكارك!"

وقد استمر كل هذا شهرين، وربما أكثر من شهرين. ثم حدث ذات يوم –بعد أن خلفنا "ايتاليا" في (تيراسينا) كالمعتاد، ومضينا إلى (نابولي)– أن تلقينا أوامر بإفراغ حمولتنا، والعودة إلى (روما) فورا، بدلا من أن نقضي ليلتنا في (نابولي). ولقد استأت، لأننا كنا على موعد مع "ايتاليا" في الصباح التالي، ولكنا كنا مضطرين إلى تنفيذ الأوامر. وتسلمت عجلة القيادة فما لبث "بالومبي" أن شرع يغط في نومه، لفوره.

وسار كل شيء في أمان، حتى بلغنا (ايتري)... فقد كانت الطريق مليئة بالمنحنيات وكانت هذه المنحنيات تضطر سائق سيارة النقل في الليل –حين يدب فيه التعب– إلى أن يفتح عينيه باستمرار، وأن يتخذ منهما نعم العون والصديق.

على أن النعاس بدأ يثقل أجفاني بعد (ايترى)، وأنا أنطلق بالسيارة خلال بساتين البرتقال في (فوندي)، ومن ثم فقد حملت نفسي على التفكير في "ايتاليا"، لكي أظل يقظانا. بيد أنني خلت أن أفكاري كانت تختلط وتزداد تكاثفا وتشابكا في مخي، كالأغصان في الغابة، إذ تزداد تكاثفا حتى تصبح في النهاية كتلة مظلمة. وأذكر أنني قلت لنفسي: "من حسن طالعي أن أجد من التفكير فيها وسيلة لأبقى مستيقظا... وإلا لكنت الآن نائما!".. والواقع أنني

كنت –إذ ذاك– قد نمت، وما كونت هذه الفكرة في اليقظة، وإنما كونتها في المنام.. وكانت خاطرا وأفاني في نعاسي، ليجعلني استغرق في النوم، باستسلام تام.

وفي اللحظة ذاتها، شعرت بالسيارة تحيد عن الطريق، وتغوص في حفرة.. وسمعت ضجيج المقطورة وارتطامها وهي تنقلب ورائي. وكنا نسير ببطء، ولذلك لم تكن ثمة إضرار. ولكنا لم نكد نفلح في مغادرة السيارة، حتى رأينا المقطورة وقد انقلبت رأسا على عقب، وقد ارتفعت عجلاتها في الهواء، بينما تناثرت حمولتها –من الجلود المدبوغة– في الحفرة.

وكانت الليلة مظلمة، وقد غاب عنها القمر، وإن زخرت صفحة السماء بالنجوم. وقد شاء الحظ أن نكون على مشارف (تيراسينا)، وإلى يميننا التل الوعر الانحدار، وإلى يسارنا –خلف بساتين الكروم– البحر المظلم، الساكن! واكتفي "بالومبي" بأن قال: "ها انت ذا قد فعلتها"، ثم أردف قائلا أن لابد لنا من أن ننشد معونة من (تيراسينا) فشرعنا في السير إليها على أقدامنا. وكانت المسافة جد قصيرة، ولكن "بالومبي"، الذي كان يفكر في الأكل على الدوام، قال –حين رأى أننا كنا على مشارف (تيراسينا)– أنه جائع، وأنه لم يكن ثمة بد من أن تنقضي بضع الساعات قبل

وصول سيارة الإنقاذ والآلة الرافعة.. ومن ثم فخليق بنا أن نأوي إلى أحد الفنادق الصغيرة. لذلك سرنا إلى المدينة، وشرعنا نبحث عن فندق. بيد أننا كنا قد تجاوزنا منتصف الليل، ولم يكن في ذلك الميدان المستدير المليء بالفجوات من أثر الغارات الجوية التي تعرض لها– سوى مقهى واحد.. وحتى هذا المقهي، كان يتأهب لأن يغلق أبوابه!

وانحرفنا إلى شارع صغير، لاح لنا أنه يفضي إلى البحر. ولمحنا على مسافة

قصيرة من بدايته، مصباحا ولافتة يعلونا بابا. وكان فندقا صغيرا، فعلا.. ولكن الحصير المعدني كان منسدلا إلى النصف، وكأنما المكان يوشك أن يغلق أبوابه.. وكانت الأبواب زجاجية، وقد انحسر الحصير المعدني عن فرجة في الجزء الزجاجي، تسمح بأن نرسل البصر خلالها.

وقال بالومبي وهو ينحني ليتأمل داخل المكان: "بوسعك أن ترى أن العمل قد انتهى!".. فانحنيت لأتأمل بدوري.. واستطعنا أن نرى قاعة كبيرة، كتلك التي توجد في الفنادق الريفية، وبها بضع موائد، وخوان كبير ليقف خلفه الموكل بتوزيع الشراب. وكانت المقاعد كلها مقلوبة فوق الموائد.. كما كانت "ايتاليا" هناك، مسلحة بمكنسة، وقد ربطت خصرها منفضة كبيرة، وأنهمكت في تنظيف المكان.. وخلف الخوان –في نهاية القاعة– وقف رجل أحدب.

ومع أنني رأيت كثيرا من المحدودين، إلا أنني لم أر مثالا للأحدب الكامل، كهذا! وكان يحيط وجهه براحتيه، بينما بدت حدبته أكثر ارتفاعا من رأسه، وراح يرمق "ايتاليا" بعينين كبيرتين، سوداوين، تنمان عن مزاج صفراوى. وفيما كانت تكنس أرض المكان، قال لها الأحدب قولا ما، دون أن يتحرك. فسارت الفتاة إليه، وأسندت المكنسة إلى الخوان، ثم طوقت عنق الرجل بذراعها، ومنحته قبلة طويلة دافئة.. وتناولت مكنستها من جديد، وعادت تحجل في أرجاء الحجرة وكأنها كانت ترقص!.. فغادر الأحدب مكانه خلف الخوان، وسار إلى وسط القاعة.

وأصبح بوسعنا –إذ ذاك– أن نرى أنه من أهل البحر، فقد كان يرتدى نعلين مكشوفين (صندل)، وسرولا من سراويل صيادي السمك صنع من قماش أزرق، وثنى طرفاه من أسفل –وقميصا مفتوح الصدر، على نمط قميص "روبسبير" وتقدم نحو الباب، فتراجعنا معا، وكأنما خامرتنا فكرة واحدة.

وفتح الأحدب البابين الزجاجيين، ثم جذب الحصير المعدني من الداخل.

وقلت محاولا كتمان انفعالي: "منذا الذي كان يخطر بباله هذا؟"

فأجاب بالومبي في حسرة أذهلتني: "أجل!" وسرنا إلى حظيرة للسيارات، طلبنا منها النجدة، ثم قضينا بقية الليل في إخراج السيارة من الحفرة، وإعادة كل تلك الجلود إليها.

وبينما كنا نحدر نحو (روما) –عند الفجر– شرع بالومبي يتكلم للمرة الأولى مذ عرفته، كما ينبغي أن يقال: "أفرأيت ما فعلته تلك الفاجرة "ايتاليا" بي؟"

فأجبت في دهشة: "ما الذي تعنيه؟"

فانطلق يقول بلهجة كئيبة، بطيئة: ".. بعد كل الذي قالته لي.. بعد أن ظلت تمسك بيدى طيلة الوقت، ونحن منطلقون في رحلاتنا ذهابا وايابا، وبعد أن أنبأتها بأنني كنت راغبا في الزواج منها.. بل أننا كنا خطيبين –إلى حد ما– في الواقع.. ومع ذلك، فهل رأيت؟.. أتؤثر دوني أحدب؟!"

وجعلتني كلماته أحبس أنفاسي، فلم أقل شيئا. بينما استطرد بالومبي قائلا: "لقد أعطيتها كثيرا من الهدايا البديعة.. عقدا من المرجان، وملفحة من الحرير، وزوجا من الأحذية الجلدية المتينة.. إنما أقول لك الحقيقة، فلقد كنت مشغوفا بها فعلا، وكانت –إلى جانب ذلك خير فتاة تصلح لي.. إنها مومس جاحدة: لا قلب لها. هكذا هي في الواقع..!"

وظل سادرا في مثل هذا الحديث فترة، وهو يتكلم في أناة، وكأنه يخاطب نفسه، في ضوء الفجر الشاحب، والسيارة تدرج بنا صوب (روما).

وهكذا لم أتمالك أن أرى أن "ايتاليا" قد غررت بنا معا، لا لشيء إلا لتقتصد أجور السفر بالسكك الحديدية. وهاجني أن أسمع "بالومبي" يتكلم، إذ أنه كان يقول عين ما كان من المحتمل أن أقول، كما أن هذه الأمور كانت تبدو، وهي تنبعث من فمه –هو الذي كان شبه عاجز عن الكلام– أمورا سخيفة، مثيرة للسخرية.. وبلغ من غيظي أنني لم أتمالك ان اندفعت –على حين غرة– قائلا في قسوة ضارية: "كف عن الحديث إلى عن كيس العظام هذه، بالله عليك!.. إنني أريد أن أخلد إلى النعاس!". وأجابني المسكين: "إن من الأمور ما يوجع.. ولكن، لا بأس.. لك ما تشاء!". ومكث صامتا طيلة الطريق، حتى بلغنا (روما).

وقد ظل محزونا عدة شهور بأكملها. أما أنا، فقد عادت الطريق –في نظري– إلى ما كانت عليه من قبل.. طريق لا أول لها ولا آخر.. مجرد شريط كئيب من الأسفلت، يطوى ثم ينشر ثانية، مرتين في كل يوم. على أن الشيء الذي حملني –في نهاية الأمر– على أن أبدل عملي، هو أن "ايتاليا" افتتحت حانة على طريق ( نابولى) بالذات، وأطلقت عليها اسم: "استراحة سائقي سيارات النقل".. والحق أنها استراحة بديعة جديرة بأن يقطع المرء مئات الأميال كي يزورها!

وغني عن القول أننا لم نقف بها البتة. ومع ذلك، فقد ظل منظر "ايتاليا" أمام مائدة الشراب، والأحدب يناولها الكؤوس وزجاجات البيرة، مبعث ألم لي. لذلك استقلت من عملي.

أما سيارة النقل –بعبارة "تحيا ايتاليا" على زجاجها الأمامي، وبالومبي خلف عجلة قيادتها– فلا تزال تجرى على الطريق.

# المطر في شهر مايو!

لسوف أعود ذات يوم إلى جبل (ماريو).. إلى فندق (كاتشياتورى). ولكنني سأذهب –إذ ذاك– مع أصدقائي.. زملاء يوم الأحد، الذين يعزفون على "الكونشيرتينا"، ولسوف نرقص معا، إذا لم تكن ثمة فتيات لنرقص معهن!.. أبدا لن أجرؤ على الذهاب وحيدا! وإني لأحلم في الليل –أحيانا– بموائد الفندق الصغير، وبأمطار شهر مايو الدافئة، وهي توقع أنغامها على هذه الموائد، وبالأشجار العابسة وهي تقطر الماء فوقها.. وقد بدت السحب –بين الأشجار– وهي تمر في الأفق، ولاح منظر بيوت روما، تحت هذه السحب.. وأخالني أسمع صوت صاحب الفندق، "انتونيو توتشى" –كما سمعته في ذلك الصباح البعيد– وهو ينادي من قبو الدار، في صخب: "ديرشى، ديرشى!". وأتمثلها أمامي مرة أخرى، وهي ترمقني بنظرة الشريك المتآمر، قبل أن تهبط إلى القبو، ووقع خطوتها الثابتة يدوي على درجات السلم.

كنت قد وصلت إلى هناك بمحض المصادفة، حين وفدت من الريف على (روما) فلما عرضنا على أن أعمل ساقيا، مقابل إيوائي في الفندق، دون أن يدفعا لي أجرا، قلت لنفسي: "إنني لن أحصل على نقود ما، ولكنني سأعيش كفرد من الأسرة، على الأقل"

ويالها من أسرة، في الواقع.. لقد وجدت أنها كانت جحيما، وليست أسرة! فقد كان رب الدار مكورا، سمينا، ككرة من الزبد، ولكن بدانته كانت من ذلك النوع الثقيل الدم، الممجوج. فقد كان له وجه مغبر مستدير، تتخلل سطحه بأسره أخاديد دقيقة –نجمت عن سمنته– وعينان صغيرتان كالخرزتين.بل

هما تشبهان عيني الثعبان.. وكان يبدو دائما في صديرية، وقميص مشمور الكمين، وقلنسوة رمادية ذات حافة يجذبها دائما فوق عينيه.. أما ابنته "ديرشى"، فلم تكن أفضل من أبيها شخصية.. كانت جافة، سيئة الطباع، خشنة. ولكنها كانت جميلة.. كانت من أولئك النسوة الصغيرات الأجسام، المفتولات العضلات، اللاتي يحركن أردافهن وأقدامهن بقوة، إذ يسرن،

وكأن الواحدة منهن تريد أن تقول: "ما عليك يا أرض غيرى!" وكان لها وجه مستدير، وعينان سوداوان وشعر فاحم، وبشرة شاحبة في لون الموتى.

ولعل البيت لم يكن يضم شخصية لطيفة سوى الأم، فقد كانت في حوالي الأربعين من عمرها، ولكنها كانت تبدو في الستين.. نحيلة، لها أنف العجائز، وشعر العجائز الحائل اللون.. على أن لطفها ربما كان راجعا إلى نقص في ذكائها.. أو هكذا كنت خليقا بأن تظنها –على أية حال– إذا رأيتها أمام موقد الطهو، وقد اختلج وجهها بأسره، بضحكة خفية صامتة، فإذا ما التفتت، استطعت أن تتبين أنها لم تؤت سوى سن واحدة، أو اثنتين.. وهذا جل ما في فمها!

وكان الفندق يشرف على الطريق، تنم عنه إشارة على شكل قوس في لون دم الثور، يحمل هذه الكلمات: "فندق كاتشياتورى، لصاحبه أنتونيو توتشي"، وقد نقشت بلون أصفر، ومن هذا القوس كانت تمتد طريق ظليلة إلى الموائد التي قامت تحت الأشجار، في مواجهة المنظر الذي كان بمثابة لوحة لمدينة (روما). أما المبنى ذاته فكان ريفيا، يتألف من جدران لا تكاد تتخللها نوافذ، وسقف من القرميد.

وكان الصيف هو خير المواسم، إذ كان الناس يتوافدون على الفندق من الصباح حتى منتصف الليل.. أسر تصطحب أطفالها، عشاق، ثلل من الرجال..

فكانوا يجلسون إلى الموائد، يشربون النبيذ، ويتناولون ما يقدمه "توتشى" من طعام، ويتأملون المنظر. ولم نكن نجد وقتا نتمالك فيه أنفاسنا.. فكنا نحن الرجلين –نقوم بخدمة الرواد طيلة الوقت، بينما كانت المرأتان تطهوان وتغسلان دون انقطاع. فإذا أقبل المساء، كان التعب يثقلنا، فنأوي إلى مضاجعنا، لا يكاد الواحد منا ينظر إلى وجوه الآخرين.

أما في الشتاء –بل وعندما تسقط الأمطار في الفصول الطيبة– فإن المتاعب كانت تبدأ، إذ كان كل من الأب والأبنة يكره الآخر، بل إن القول بأن كلا منهما كان يكره الآخر، يعتبر وصفا مخففا، فقد كان كل منهما على استعداد لأن يقتل الآخر، عن طيب خاطر.. كان الأب متعسفا، وضيعا، غبيا، على استعداد لأن يبث المضايقات في كل ما حوله، لاتفه الأمور. بينما كانت الأبنة صلبة كالصوان، منطوية على نفسها، حقودة، تصر دائما على أن تكون لها الكلمة الأخيرة، وتذهب في العناد إلى درجة الشراسة.

ولعل أعظم ما كان تنبع عنه كراهيتهما المتبادلة، هو أنهما من دم واحد. وكما هو معروف، ليس كصلة الدم في إيغار الناس بعضهم على بعض.. على أنهما كانا يتبادلان الكراهية لدواع تنبعث عن المصلحة الخاصة كذلك فقد كانت الأبنة طموحة، وكانت تقول أن منظر (روما) –الذي يشرف عليه الفندق– كان رأس مال جاهز، مهيأ للاستغلال، ولكنهم كانوا يتركون الخير يذهب أدراج الرياح، بدلا من أن يفيدوا منه. وكانت تقول أن من الجدير بأبيها أن ينشئ ساحة بالأسمنت للرقص، وأن يستأجر فرقة موسيقية، ويعلق فوانيس صيفية، ويحول الدار إلى مطعم حديث يسميه "مطعم منظر المدينة".

ولكن الأب لم يكن يثق بأحد –ولا بنفسه– لأنه كان وضيعا، وعدوا لكل جديد –من ناحية– ولأن ابنته هي التي كانت تقترح ذلك –من ناحية أخرى–

وكان يؤثر أن تقطع رقبته، على أن ينزل عند رأى ابنته!.. وكان الشجار يدب بين الأب والأبنة، كلما جلست الأسرة إلى المائدة. فكانت الفتاة تشن حملة، بأسلوب وقح جارح، لسبب شخصي محض.. كأن يتجشأ أبوها أثناء الأكل، على سبيل المثال.. وكان يرد حملتها بعبارات وقحة، شتامة.. فتمعن الابنة في حملتها، فيصفعها الأب.. وجدير بالذكر أنه كان يستمرئ صفعها ويجد فيه متعة، إذ كان وجهه يتخذ شكلا معينا، فيعض على شفته السفلي، وتدور عيناه في محجريهما. على أن الصفعة كانت –لدى الأبنة– أشبه بالماء النمير للزهرة، فكانت تزداد أغداقا للكراهية والقحة. وإذ ذاك، كان أبوها يمسك بشعرها، وينهال عليها ضربا.. وتنهمر الأطباق والأكواب على الأرض، ولا تلبث الأم أن تنضم إلى المعركة، إذ تحاول أن تتدخل بين الأب والابنة، ولكن بوسيلة تنم عن غباء، وبتلك الابتسامة الأبدية على فمها الخالي من الأسنان.. بينما أبرح أنا البيت، بقلب يفيض بالسم.

وانطلق متريضا في طريق (لاكاميلوتشيا)، وقد كنت خليقا بأن أهجر المكان قبل ذلك، لولا أنني وقعت في هوي "ديرشي". ولست من ذلك الصنف من الرجال، الذين يقعون في الحب بسهولة، إذ أنني رجل عملي. أما حين تمنح امرأة ما نفسها فتهب كل كيانها، لحما ودما، بغتة ودون مساومة، فهنا يتردى الرجل، وكأنه وقع في فخ، وكلما ازداد جهدا لتحرير نفسه، ازداد أسنان الفخ انغراسا في لحمه. ولابد أن "ديرشي" كانت قد عقدت النية على شئ من هذا القبيل، حتى قبل أن تعرفني، فلم يكن يعنيها في شئ أن أكون أنا أو رجل سواى.. إذ أنها أقبلت على حجرتي –في يوم وصولي بالذات– عندما أوشكت على النعاس، فانتزعتني بجذبة واحدة من عدم الاكتراث إلى الوجد المشبوب، وأنا بين اليقظة والمنام، حتى ليتعذر على أن أعرف ما إذا كان ما جرى حلما أو

حقيقة!.. والواقع أنه لم يدر بيننا حديث ولا نظرات، ولا لمسات، ولا أي نوع من المراودات التي يلجأ إليها أي حبيبين ليفصح كل منهما للآخر عن حبة.. بل إن الأمر كان على النقيض، فكأنني كنت مع مومس من الصنف الرخيص.. وكل ما هناك من فارق، هو أن "ديرشي" لم تكن بغيا، بل أنها على العكس- كانت معروفة بالتقوى والترفع.. وكان هذا التناقض بالذات هو الذي أعد لي الفخ الذي وقعت فيه!

وأنا رجل فطرت على الصبر واتباع صوت العقل، ولكنني -كذلك- عنيف، يتدافع الدم سراعا إلى رأسى، إذا ما أهاجني الناس. وهو أمر ينم عنه مظهري الجسدى، فأنا أشقر الشعر، شاحب الوجه، ولكن أي شيء يستطيع أن يحول لوني إلى الحمرة القانية. وقد أهانتني "ديرشي"، فلم ألبث أن تبينت السبب الذي دعاها إلى ذلك.. كانت تريدني على أن أقف إلى جانبها ضد أبيها. وقالت أنني كنت جبانا إذا أسمح لأبيها بأن يضربها أمامي وأن يمسك بشعرها، بل وأن يتمادى إلى أبعد من ذلك -كما حدث في إحدى المرات- فيطرحها أرضا، ويروح يركلها.. ولست أزعم أنها لم تكن على حق، فقد أصبحنا عشيقين، وكان من واجبي أن أذود عنها. بيد أنني تبينت أن ثمة غاية أخرى كانت تستهويها.. وفي غيظي للإهانة إذ وصفت بالجبن، وسخطي إذ عرفت أنها كانت تستخدم الكلمة لغرض مقصود، لم أقو على احتمال حديثها.. بيد أنها لم تلبث أن غيرت لهجتها، ذات يوم بديع، وأخذت تصور لي كم يكون جميلا أن نتزوج، وأن نحقق مشروع "مطعم منظر المدينة"، لحسابنا الخاص.. أنا وهي فقط!

وتحولت فإذا هي في تألق الذهب، وإذا هي كلها رقة، ومحبة، وحلاوة!.. وكانت هذه أجمل فترات حبنا، ولكني لا أكاد أجد أثرا من كل هذا في الفتاة

الآن، ولابد أنه كان في الأمر شئ إذ ذاك.. والواقع أنها لم تلبث أن غيرت لهجتها —مرة أخرى— على حين بغتة، وراحت تقول أنه لن يكون لنا أن نطمع في أمل واحد —سواء كنا متزوجين أو لم نكن— طالما ظل أبوها على قيد الحياة.. وقصارى القول، أن علينا —كما قالتها لي بصراحة— أن نقتله!.. وكان هذا التحول شبيها بالمفاجأة التي تمثلت في وفودها على حجرتي في ليلتي الأولى.. فلا مقدمات، ولا مداورات، بل إنها رمتني بهذا الاقتراح، ثم انصرفت، وخلفتني أقلبه في فكرى!

وقلت لها—في اليوم التالي— أنها كانت مخطئة إذ ظنت أنني على استعداد لأن أساعدها في أمر كهذا، فأخبرتني بأنه من الخير لي —في هذا الحال— أن أحزم أمري على الرحيل فورا، لأنني لم أعد على قيد الوجود بالنسبة لها!.. وكانت عند كلمتها فعلا، إذ أنها نادرا ما التفتت إلى، منذ ذلك اليوم، وأصبحنا لا نكاد نتبادل حديثا. وكان رد فعل هذا —في نفسي— أنني أتجهت إلى كراهية الأب، فقد لاح لي أن الذنب كان ذنبه هو!.. وشاءت المصادفة، أن يشرع الأب في إثارة المشاجرات يوميا —في تلك الفترة— وكأنه كان يتعمد أن يجعل نفسه مقيتا.

كان ذلك في شهر مايو، وهو موسم الرواج، الذي اعتاد الناس أن يفدوا فيه على الفندق، ليحتسوا النبيذ ويلتهموا "الفاصوليا" الجديدة.. على أن الأمور جرت —في هذه الفترة— على النقيض، إذ راحت الأمطار تنهمر دافقة طيلة الوقت، على أرض الريف الخضراء الخصيبة، فلم يعد يفد على الفندق أحد ولا.. كلب! ومن ثم فقد أصبح رب الفندق في ضيق دائم.

وفيما كنا حول المائدة إذا به يدفع طبقه جانبا، وهو يقول: "أنك تتعمدين أن تقدمي لي هذا الحساء القذر الكثيف!". فأجابته الفتاة: "لو أنني تعمدت

أمرا، لدسست لك السم فيه!". فحملق فيها، ثم صفع وجهها بشدة، حتى لقد قفز المشبك من شعرها. وكنا في شبه ظلام، من جراء المطر، فإذا بوجه "ديرشى" يبدو في العتمة أبيض، جامدا، كأنه قد من رخام.. وأخذ شعرها يتهدل –في الجانب الذي سقط المشبك منه– رويدا، في تؤدة بالغة، وكأنه ثلة من الثعابين التي تستيقظ من نعاس!.

وهنا قلت لتوتشي: "هل تسمح بالكف عن هذا؟".

فأجاب: "لا شأن لك بهذا!"

بيد أنه كان في دهشة، لأنها كانت المرة الأولى التي أتدخل فيها بينهما. وخامرني في تلك اللحظة شعور أقرب ما يكون إلى الغرور، وكأنني كنت أذود عن امرأة ضعيفة. وهو ما لم يكن يطابق الواقع تماما.

وخطر لي أنني بهذه الطريقة جدير بأن أعود إلى الاستحواذ على الفتاة مرة أخرى، وأن هذه هي الطريقة الوحيدة التي تيسر لي نيلها من جديد. ومن ثم فإنني قلت بصوت مرتفع: "كف عن هذا! أتفهم ما أقول؟.. إنني لن أسكت عن هذا!" وكان وجهي قد أصبح في لون اللهب، بينما تدافع الدم في عروقي..

وأمسكت "ديرشى" بيدي –تحت المائدة– فأدركت أنني كنت في قبضتها –ولكن فرصة التراجع كانت فاتت.. وقفز الرجل قائما على قدميه، قائلا: "وهاك صفعة لك أنت الآخر!". وانهال على خدي بصفعة رنانة، فقبضت على كوب وطوحت في وجهه بكل ما كان فيها من نبيذ. وأعتقد أنني كنت أفكر في تلك الكوب وذلك النبيذ، شهرا قبل ذلك. وكم سررت بهذه الحركة مني، وشد ما كرهت "توتشى"!.

أما وقد أصبح النبيذ يغمر وجهه، وقد حققت الحركة التي كنت أرجوها،

فإنني أسرعت أصعد درجات السلم. وسمعته يصرخ خلفي: "لسوف أقتلك، أيها الوغد، أيها الأفاق!".. وسرعان ما أغلقت باب حجرتي، وسرت إلى النافذة لا تأمل المطر المنهمر. وفي غمرة الهياج، تناولت السكين —التي اعتدت أن أستبقيها في أحد أدراجي— وغرستها في قاعدة النافذة بشدة قصمت نصلها!

وبعد؟!.. لقد كنا هناك، فوق جبل (مونتى ماريو) المشئوم، ولو أنني كنت في (روما)، لما كنت خليقا بأن أوافق على ما كانت "ديرشي" تريده مني. ولكن كل شيء أصبح هناك طبيعيا، وإذا الشيء الذي كان من المستحيلات في اليوم السابق، يصبح أمرا مفروغا منه في اليوم التالي. ومن ثم فقد غدوت على تفاهم مع "ديرشي"، فجمعنا رأينا معا على الوسيلة، واليوم، والساعة.. إذ اعتاد "توتشي" أن يهبط —في كل صباح— إلى القبو لكي يحضر الخمر اللازمة لليوم، وكانت "ديرشي" تصحبه حاملة قنينة كبيرة ليملأها. وقد كان القبو تحت سطح الأرض.

وكانت وسيلة الهبوط إليه درجات ثبتت إلى إطار، وأسندت إلى الجدار.. وأعتقد أنها كانت سبع درجات. وقد استقر رأينا على أن أتبعهما إلى القبو. وبينما يكون "توتشي" منحنيا ليحكم سدادة قنينة الخمر، أنهال على رأسه بقضيب من حديد، كان يستخدم لتحريك النار. ثم نزحزح السلم عن مكانه، ونقول أن الرجل قد وقع فتهشمت جمجمته!

وكنت راغبا في ذلك.. وكنت غير راغب، كذلك! على أنني في ثورة الغيظ قلت: "سأقدم على هذا العمل، لأثبت أنني غير خائف.. بيد أنني سأرحل بعده، فلا أعود البتة!". فكان جواب ديرشي: "يحسن بك —في هذه الحال— أن لا تفعل شيئا، وأن ترحل لفورك.. فإنني أحبك، ولا أبتغي أن أفقدك!".

كانت تعرف كيف تذكي صبابتي عندما تريد، ومن ثم فقد أنبأتها بأنني على استعداد لأن أرتكب ذلك العمل، وأن أمكث بعده، فنفتتح المطعم معا!

وفي اليوم المحدد.. طلب "توتشي" إلى "ديرشي" أن تحضر قنينة كبيرة، ثم اتجه صوب باب القبو، وكان في أقصى أركان المبنى. وكان المطر ينهمر –كالمعتاد– وجوف الفندق شبة مظلم. وأحضرت "ديرشي" القنينة الكبيرة، ثم تبعت أباها. ولكنها التفتت نحوى –قبل أن تهبط إلى القبو– وأصدرت إشارة جد واضحة، تنم عن أننا بيتنا أمرا. ولمحت أمها هذه الإشارة –وهي تقف بالقرب من الموقد– فوقفت فاغرة فاها، تحملق فينا.

ونهضت عن المائدة، فسرت إلى الموقد، وتناولت محرك النار، ومررت أمام الأم مباشرة. فحملقت في، ثم نظرت إلى "ديرشي".. وكانت نظراتها حافلة بحديث طويل، ولكن من الجلي أنها لم تكن راغبة في أن تتكلم!.. وكان والد "ديرشي" يصرخ مناديا إياها، من القبو: "ديرشي، ديرشي".

فأجابت: "ها أنذى مقبلة!".. وما زلت أذكر أنني قلت لنفسي –لآخر مرة– أنها كانت ذات بدن جذاب.. وهبطت السلم بقدمين ثابتتين، في تلك المشية التي كانت تحذفها فتثير الحواس.. وأحنت عنقها البض الملفوف، تحت الحافة العليا للباب!

وفي تلك اللحظة، فتح الباب المؤدى إلى الحديقة، وأقبل رجل نشر على منكبيه جوالا مبتلا. كان حوذيا من المشتغلين بالنقل. وقال دون أن ينظر إلى: " يا فتي.. هلا ساعدتنا؟". فتبعته بطريقة آلية، وأنا لا أزال قابضا على محرك النار.. وكان العمل يجرى في بناء حظيرة، في المزرعة المجاورة، وقد حملت عربة هذا الحوذي أحجارا، ولكن عجلاتها غاصت في الطين، وهي تدلف خلال باب المزرعة، فعجز الجواد عن أن يقلقها من مكانها. وبدأ الحوذي –الذي كان

قبيحا، قميئا، كالحيوان– وهو يحرق الأرم غيظا. ووضعت محرك النار على إحدى قوائم باب المزرعة، ثم دسست حجرين تحت عجلتي العربة، ورحت أدفعها، بينما أمسك الحوذي بعنان الجواد وراح يجذبه.

وكان المطر ينهمر مدرارا على أشجار البيلسان الكثيفة، وأشجار السنط المزهرة التي كان عبيرها ينبعث قويا.. ولم تتحرك العربة، بينما راح الحوذي يسب ويلعن، وتناول سوطه وانهال بمقبضه على الجواد. ثم اشتد حنقه، فقبض على محرك النار، الذي كنت قد وضعته على قائمة الباب.

وكان بوسعك أن تتبين أنه كان يتميز غيظا، لا من جراء العربة، وإنما من جراء حياته كلها، فقد كان يمقت الجواد، كما لو كان شخصا. وقلت لنفسي: "ها هو ذا يوشك أن يقتله!". وكنت على وشك أن أصرخ: "لا، دع محرك النار مكانه!".. ولكنني تبينت –إذ ذاك– أنني سأغدو بمأمن إذا هو قتل الجواد. فقد لاح لي أن غيظي وهياجي كانا ينتقلان إلى جسد الحوذي، الذي بدأ كرجل تملكه الشيطان.. بل إنه كان كذلك فعلا، فقد مال بجسده على ذراعي العربة، ودفعها دفعة أخرى، ثم شرع ينهال على رأس الجواد بالقضيب.

وأغمضت عيني، عند الضربة الأولى.. ثم سمعته يواصل الضرب، فراحت قواي تتسرب مني، حتى أوشكت أن أخر مغشيا علي. وما لبثت أن فتحت عيني ثانية، فرأيت الحصان وقد جثا على ركبه، والحوذي ماض في ضربه.. لا لكي يحثه على النهوض، وإنما.. لكي يقضي عليه.. وارتمى الحصان على جانبه، وراح يركل الهواء بأقدامه، في وهن.. ثم أسلم رأسه للوحل.

وطوح الحوذي بالقضيب، وهو يلهث، وقد اكفهر وجهه ثم ركل الجواد. ولكن، دون جدوى.. فأدرك أنه قد قضى عليه.

ومررت دون أن أحتك به –ثم انطلقت أسير نحو الطريق العامة، وأقبل قطار الترام، في طريقه إلى (روما)، فهرعت وقفزت إليه، ثم التفت خلفي، فرأيت –للمرة الأخيرة– لافتة الفندق: "فندق كاتشيانورى، لصاحبه أنتونيو توتشى"، خلال أوراق الأشجار المخضلة بمياه أمطار شهر مايو!

## في سبيل حذاءين!

كنت أتوق إلى زوج من الأحذية الجديدة، إلى درجة أنني رحت أحلم بهما خلال الصيف، وأنا راقد في حجرة الطابق الأرضي، حيث أجر البواب لي سريرا صغيرا –من أسرة المعسكرات –في مقابل مائة ليرة في الليلة.

وما كان شوقي راجعا إلى أنني كنت أسير حافي القدمين، وإنما إلى أن الحذائين اللذين كنت ألبسهما، كانا منحة من الأمريكيين، وكانا خفيفين، رقيقي النعلين، وأوشكا –في هذه الفترة– أن يصبحا بلا كعبين، كما أن أحدهما كان قد ثقب عند الأصبع الصغري لقدمي، بينما كان الثاني قد نحل حتى أصبح يبدو أقرب إلى النعل (الشبشب) الخفيف، منه إلى الحذاء!

وكنت أتحايل على طرد الجوع –إلى حد ما– ببيع بضع أشياء في السوق السوداء، وبحمل "الطرود"، وأداء المهمات، ولكنني لم أوفق قط إلى إذخار النقود اللازمة لابتياع حذاءين، إذ ظللت بحاجة إلى بضع آلاف من الليرات. وأصبح هذان الحذاءان المنشودان عبئا يجثم على صدري، وقذى أسود يعكر صفوي، ويطاردني أينما ذهبت!.. وبدا لي أن ليس بوسعي أن أعيش بدون حذاءين جديدين. وكان الهم لاضطراري إلى البقاء بدونهما، يثقل على – في بعض الأحيان– إلى درجة أذهب معها إلى التفكير في أن أقتل نفسى!

وكنت إذا سرت في الطريق لا أنظر إلى شيء سوى أقدام المارة.. وفيما عدا ذلك، كنت أقف نوافذ محال صانعي الأحذية، وأظل أحملق –بعينين واسعتين لفرط الإعجاب– في الأحذية الطويلة والأحذية العديمة الرقاب، وأقارن بين أسعارها، وأشكالها، وألوانها، وأنتقى –في ذهني– الزوج الذي يكون

أكثر ملاءمة لي مما عداه.

وفي الحجرة القابعة تحت مستوى الأرض –حيث اعتدت أن أنام– تعرفت إلى شخص يدعى "لوروسو"، كان شريدا مثلى.. كان شابا أشقر الشعر مجعد، متين البنيان وإن لم يضارعني طولا. وسرعان ما تبينت أنني كنت أحسده لمجرد أنه استطاع، بوسيلة ما، أن يحصل لنفسه على زوج من الأحذية ذات الأربطة، صنع من جلد سميك، وقد أوتي نعلا مزدوجا، ومسامير واقية.. من ذلك النوع من الأحذية، الذي يرتديه ضباط الحلفاء. وكان هذان الحذاءان كبيرين جدا بالنسبة لقدمي "لوروسو"، فكان يحشوهما، في كل صباح –في الواقع– بورق الصحف، ليلائما قدميه. ولكنهما –من ناحية أخرى– كانا يلائمان قدمي أنا تماما، لأنهما كان أكبر من قدمي "لوروسو".

وكنت أعرف أن للوروسو رغبة يتوق كثيرا إلى تحقيقها.. كان يهفو إلى أن يبتاع مزمارا من مزامير الرعاة، وهي أداة كان يجيد العزف عليها، لأنه كان يعيش مع الرعاة على الجبال، قبل أن يفد على (روما). وكان يقول أنه بجسمه الصغير الحجم، وشعره الأشقر، وعينيه الزرقاوين، وسترته الواقية من الريح، فوق سرواله، الذي كان من سراويل جنود الحلفاء –وقد دست ساقاه في رقبتي حذائيه– اللذين كانا من أحذية جنود الحلفاء– وغليونه بين شفتيه.. كان يقول أنه يخال أن بوسعه أن يطوف بالمطاعم، وأن يكتسب كثيرا من النقود، إذ يعزف على المزمار ألحان الرعاة –التي كان يعرفها– وبعض الألحان التي حفظها أثناء عمله كساع لدى الأمريكيين. ولكن المزمار كان يتكلف مبلغا كبيرا من المال، يعادل ثمن زوج من الأحذية، إن لم يزد. وما قدر للوروسو –الذي كان يمارس مثلي كل الحرف– أن يحصل على المال اللازم لشراء المزمار. لذلك فإنه كان يفكر كثيرا في مزماره، بقدر ما كنت أفكر في حذاءي، فاتفقنا معا على أمر،

دون أن تتكلم عن شئ اللهم إلا أنني حدثته -أولا- عن الحذاءين، فحدثني هو عن المزمار. ولكن هذا الحديث لم يتجاوز مجرد الكلمات، فلم نسع إلى أن ندبر لنفسينا المزمار أو الحذاءين.

وانتهينا أخيرا إلى اتفاق مشترك.. إلى قرار.. أو بالأخرى، كنت أنا الذي فكر فيه، فوافق عليه "لوروسو" في الحال، وكأنه لم يكن يفكر قط في أي شيء آخر طيلة عمره. ذلك هو أن نذهب إلى بقعة منعزلة، من البقاع التي يرتادها العشاق، مثل حدائق (بورجيزى)، وهناك نباغت زوجا من أولئك العشاق الذين يبحثون عن البقاع المنعزلة، ليستمتعوا بالعناق والقبلات، دون أن يعكر عليهم أحد صفوهم. وقد اكتشفت إذ ذاك -لدهشتي- أن "لوروسو" كان متعطشا إلى الدم.. وهو ما لم أكن أصدقه، لبراءة مظهره الذي كان يشبه مظهر فتيان الرعاة. فقد بادر لفوره إلى القول -في تحمس- بأنه أوشك أن يشعر بأنه كان "ينهال" على المرأة والرجل معا.. وقد مكث يردد كلمة "الانهيال" -التي لم يكن يدري من أين اكتسبها- في تلذذ واستمراء، وكأنه كان يتمثل اللحظة التي ينهال فيها عليهما حقا!.. بل إنه انقض علي، في إحدى المرات -وكأنما كان راغبا في أن يبين لي كيف كان خليقا بأن يتصرف- وأمسك بطوقى، متظاهرا بأنه ينهال على رأسي بالمفتاح الإنجليزي الثقيل الذي كان يمتلكه، وهو يقول: "سأضربه هكذا.. هكذا.. هكذا.. إلى أن أشبعهما معا لكما!" على أنني أوتيت أعصابا جد سيئة، إذ كنت قد ظللت مستلقيا يوما وليلة، في قبو تحت أنقاض منزلي، في قريتي الأصلية، بعد غارة جوية، لذلك أصبحت -منذ ذلك الحين- عرضة لنوبة تجعل أعصاب وجهى تختلج باستمرار، كما أن أتفه الأمور كفيل بأن يجعلني أفقد سيطرتي على نفسى.

ومن ثم فقد دفعت لوروسو بعنف، فارتمى على جدار الحجرة التي كانت

تحت مستوى الأرض، وقلت: "احتفظ بيديك لنفسك. فإنني أقسم بأن أنتزع منك هذا المفتاح الإنجليزي، فأهوي به على رأسك بضربة قاضية، إذا أنت مسستني مرة ثانية!".

وما لبثت أن تمالكت نفسي، فقلت: "ألا ترى مدى جهلك وغبائك؟.. إنك لا تفهم شيئا، بل أنك أغبى من الثور!.. ألا تدرى أن العاشقين اللذين يتبادلان الحب في الخلاء، إنما يفعلان ذلك لأنهما لا يبغيان أن يعرف أحد بأمرهما؟.. لولا هذان لمارسا الهوى داخل الدور.. لذلك فإنهما لن يجرءا على أن يبلغا أمرك إلى السلطات، إذا أنت استوليت على نقودهما، إذ أنهما يخشيان أن يعرف زوج أو أم بما يمارسانه من هوى!.. اما إذا أنت ضربتهما حتى آذيتهما، فلن تلبث الصحف أن تتحدث عن ذلك، ويعرف كل امرئ بالأمر، فيقبض البوليس عليك في النهاية.. لا، إنما الشيء الذي ينبغي، هو أن نزعم أننا من رجال المباحث، ونصيح فيهما: "ارفعا الأيدي!.. أنكما تتبادلان القبلات في مكان عام، فهلا تدريان أن هذا محرم؟.. أنكما تخرقان القانون!".. وبحجة الخروج على القانون، نستطيع أن نستولى على نقودهما وننصرف!"

وحملق "لوروسو" وهو فاغر الفم، وعيناه اللتان في زرقة القيشاني تتطلعان من تحت شعره الأشقر الزاحف على جبينه. وأخيرا قال: "أجل، ولكن... ولكن الموتى لا يشون بما "جرى".. قالها في بساطة، كما كان شأنه حين قال: "سأضربه هكذا!".. كأنه ببغاء لا يدرى سوى الله من أين التقط الكلمات!.. فأجابته: "لا تكن أحمق.. افعل ما أشير عليك به، واعقل لسانك!". ولم يحاول أن يقدم على أي اعتراض آخر، وبهذا انعقد اتفاقنا على الخطة!

ولما حان اليوم المحدد، خرجنا في المساء إلى حدائق (بورجيزى) وكان "لوروسو" يحمل المفتاح الانجليزي داخل سترته، بينما حملت في جيبي مسدسا

ألمانيا كنت قد كلفت ببيعه ولكنني لم أجد له مشتريا. وكنت قد أفرغت الرصاص منه —على سبيل الاحتياط— إذ رأيت أن حملتنا إما أن تنتهي إلى نجاح سريع، وإما أن نعدل عنها إذا وجدت أن الضرورة تدعو إلى إطلاق النار.

وسرنا في الطريق الذي يمتد بجانب طريق الجياد، فإذا كل مقعد يحمل عاشقين، ولم يحل بيننا وبين غايتنا سوى أن الطريق كانت مزودة بمصابيح، وكان الناس يسلكونها، فكأنها شارع عام.. وعرجنا إلى الطريق المفضية إلى (بينشيو) وهي من أكثر أرجاء حدائق (بورجيزى) ظلمة، نظرا لكثافة الأشجار ولندرة المصابيح.. وكان العشاق الذين احتلوا المقاعد يفوقون الحصر.. بل لقد كان بين المقاعد ما احتله زوجان من العشاق، وقد مضى كل اثنين في العناق والقبلات، غير عابئين —أحيانا— بالعاشقين الآخرين، دون أن يخامرهما استحياء من أنهما كانا على مرأى من هذين العاشقين الآخرين اللذين كانا يمارسان الشيء ذاته!

ولاح على "لوروسو" أنه نسى —إذ ذاك— رغبته في لكم الناس وإيذائهم، فهكذا فطر، وقد اعتاد أن يبدل فكره بسهولة بالغة.. فما هو أن رأى العشاق يتبادلون القبلات، حتى أخذ يتنهد، وراحت عيناه تومضان، وامتلأت أساريره بالحسد. ومضى يقول لي: "إنني لا أزال في شرخ الشباب، على أية حال. وأصارحك بأنني إذ أشهد كل هؤلاء العشاق يتبادلون القبلات، أتمنى لو لم أكن في (روما)، ولو أنني كنت في الريف، فإذ ذاك كنت أرهب الرجل حتى أحمله على الفرار، ثم أتحول إلى الفتاة قائلا: تعالى يا حسنائي.. تعالى يا جميلتي، فلن أوذيك.. هيا، تعالى يا حبيبتي.. تعالى إلى فتاك توماسو!"

وأخذ يسير في منتصف عرض الطريق، على مسافة مني، وهو يحملق في العشاق بطريقة مخجلة، ويلعق شفتيه بلسانه الأحمر الكبير، وكأنه ثور.. ولقد أراد أن يحملني —أنا الآخر— على أن أنظر إلى العشاق، وأن أتأمل كيف كان

الرجال يدسون أيديهم تحت أثواب النساء، وكيف كانت النساء تتعلق بالرجال، ويتركنهم يتحسسون أجسامهن بأيديهم.

ولكنني أجبته: "يا لك من غبي!.. أراغب أنت في ذلك المزمار، أم تراك غير راغب؟".. فلوى جذعه لينظر إلى أحد المقاعد، وهو يقول: "لست أبتغي الآن سوى فتاة.. أية فتاة ترضيني!.. هذه مثلا!". فقلت له: "ما كان لك إذن، أن تجلب معك مفتاحك الإنجليزي، وأن ترافقني".. وكان رده: "أجل، أكاد أعتقد أن هذا ما كان ينبغي لي!".. وما قال هذا إلا لأنه كان متقلبا، يغير رأيه بين دقيقة وأخرى! وفيما كنا نطوف بالحدائق، رأى من السيقان الأنثوية العارية، ومن القبلات والضمات، ما كان كافيا لحمله على أن يشعر بأنه كان موشكا على أن يموت شوقا إلى أن يبادل فتاة الهوى!.. أما أنا، فكنت على النقيض، فأنا لست سهل الاستثارة، وإذا رغبت في شيء، فلابد من هذا الشيء بالذات، ولا شيء غيره. ولقد كنت أتوق إلى الحذاءين، فعقدت العزم على أن أحصل عليهما في ذلك المساء بالذات، مهما يكن الثمن!

وظللنا نطوف بالحدائق والمتنزهات بعض الوقت، متنقلين من طريق إلى أخرى، ومن مقعد إلى آخر، مارين بجميع التماثيل الرخامية النصفية، التي صفت في خط طويل، في ظلال الأشجار. ولم يقدر لنا قط أن نعثر على البقعة الملائمة لغايتنا، لأننا كنا في خوف —دائما— من أن يرانا الجالسون على المقاعد الأخرى القريبة. وأخذ "لوروسو" يفقد اهتمامه مرة أخرى، كعادته، وإن لم يعد يشغل بالحب، وإنما أصبح مشغولا بتلك التماثيل النصفية الرخامية، إذ لم يلبث أن سألني، على حين غرة: "لمن كل هذه التماثيل؟.. لكم أحب أن أعرف لمن أقيمت؟". فأجبته: "أرأيت مدى جهلك؟.. إنها جميعا لعظماء من الرجال.. فإن عظمتهم كانت سببا في أن نحتت لهم التماثيل، وأن أقيمت هنا "

وسار إلى أحد التماثيل فتأمله، ثم قال: "ولكن هذا التمثال لامرأة". فأجبته: "جدير بك أن تتبين أنها الأخرى كانت عظيمة". ولم يبد عليه أنه اقتنع بهذا الجواب، إذ أنه لم يلبث أن تساءل في النهاية: "إذن، فهل تراهم يقيمون لي تمثالا، لو أنني كنت عظيما؟"

– طبعا.. ولكن.. ولكنك لن تصبح عظيما قط!

– وكيف لك أن تعرف؟.. هب أنني أصبحت مصدر الذعر لروما بأسرها.. لو أنني انقضضت على أناس كثيرين. وتحدثت عني الصحف، ولم يتسن لهم العثور على إطلاقا.. أنهم خليقون –إذ ذاك– بأن يقيموا لي تمثالا!

وانفجرت مقهقها –بالرغم من أنني لم أكن راغبا في الضحك –إذ أنني عرفت مبعث الفكرة التي أوحت له بأن يكون "مصدر الذعر لروما". فلقد ذهبنا معا– قبل ذلك بأيام قلائل– لمشاهدة شريط سينمى، كان –في الواقع– يدعى: "مصدر الذعر لشيكاجو"!.. وما لبثت أن قلت له: "لا، لن يقدر لك أن تغدو عظيما، عن طريق الانقضاض على الناس.. ألا ما أشد جهلك!.. إن العظماء هم الذين لا يعتدون على أي مخلوق"

– فماذا يفعلون، إذن، حتى يصبحوا عظماء؟

– آه!.. أحسبهم يؤلفون كتبا

وبدا عليه الضيق، إذ سمع هذه الكلمات، لأنه كان أميا تقريبا. بيد أنه قال في آخر الأمر: "ومع ذلك، فإنني أتمنى أن يقام لي تمثال.. إنني لصادق كل الصدق في رغبتي.. فإن القوم سيظلون –بهذه الطريقة– يذكرونني". وكان ردى: "إنك معتوه بالتأكيد، وإني في خجل من صحبتك.. على أنه لا جدوى من أن أحاول أن أوضح لك الأمور، فلن يكون هذا سوى مضيعة للوقت!"

وهكذا رحنا نتسكع فترة من الوقت، ثم سممنا إلى رحبة (بينشيو) ذات السياج، فإذا ثمة بضع سيارات، وقد غادرها أصحابها، وراحوا يملون أبصارهم بمنظر (روما)، كما يبدو للواقف في هذا المكان المرتفع.. وسرنا إلى السياج.. إنك لترى (روما) بأسرها من هناك وقد بدت كفطيرة هائلة، سوداء، محروقة، تتخللها أخاديد مضيئة، يمثل كل آخدود منها شارعا. ولم يكن القمر مشرقا، ولكن السماء كانت وضاءة. وأشرت للوروسو نحو شبح قبة كنيسة (سان بيترو)، وقد لاحت سوداء، ووراءها رقعة السماء المرصعة بالنجوم. فقال: "تصور!.. لو أنني كنت مبعث الذعر لروما، لكان كل هؤلاء الناس، الذيم يعمرون كل هذه الدور، يفكرون في، ويهتمون بأمرى، طيلة الوقت!". وأشار بيده وكأنما كان يهدد (روما) بأسرها، ثم استطرد قائلا: "ولخرجت في كل ليلة، فاعتديت على بعض الناس، دون أن يعثر لي أحد على أثر!".

فقلت معلقا على حديثه: "إنك معتوه حقا!.. وما ينبغي لك أن تذهب إلى دور السينما البتة..

إنهم في أمريكا يستخدمون البنادق السريعة الطلقات، والسيارات.. وهم منظمون.. أنهم ينظمون هذه الأمور كما ينظمون أي عمل جدى.. أما أنت؟. فلست سوى راعى غنم نشأ على اللبن المختثر، ولم يؤت من سلاح سوى قبضة فولاذية في صدر سترته!".. وظل لبضع لحظات صامتا، متألما. ثم قال أخيرا: "أنه لتصور بديع، لا إنكار في ذلك.. بديع جدا، في الواقع.. ولكنى أدرك تماما أن لا سبيل لنا الليلة إلى عمل أي شيء، بل كل ما علينا هو أن نعود فنندس في الفراش!"

فسألته: "ما الذي تعنيه؟"

– أعنى أن عزيمتك قد فترت، وأنك خائف!

لقد اعتاد دائما أن يسلك هذا المسلك، فسرعان ما يشرد ذهنه، ويشغل بأمور غير التي يجدر به أن يفكر فيها، ثم يلقي اللوم على أنا، فيتهمني بأنني جبان!.. ولكنني قلت له: "هيا أيها الأحمق.. سأريك ما إذا كنت خائفا أم غير خائف!"

ومضينا في طريق شديد الإظلام، تحف به الأشجار، ويمتد ملاصقا لحجز يطل من ارتفاع على طريق (مورو تورتو). وكانت ثمة مقاعد عريضة. وكان ثمة عدد وافر من العشاق هنا أيضا، ولكنني تبينت أن لا مال هنا للعمل، لسبب أو لآخر، فأشرت إلى "لوروسو" كي يمضي قدما.

وعند نقطة في الطريق، لمحت اثنين من العشاق وقد لاذا ببقعة مظلمة ومنعزلة تماما، فكدت أعقد العزم على العمل، لولا أن مر –في تلك اللحظة– فارسان من الشرطة، فخشى العاشقان أن يفتضحا، واختفيا عن الأنظار ووصلنا –ونحن نسير بحذاء الحاجز، طيلة الوقت– إلى ذلك الجزء من البقعة المشرف على جسر (مورو تورتو).. وهناك يقوم كوخ محوط بثلة كثيفة من أشار الغار، تعززها أسلاك شائكة. على أنه كانت ثمة "بوابة" خشبية صغيرة –في أحد الجوانب– مفتوحة دائما. وكنت أعرف هذا الكوخ لكثرة ما نمت هناك في ليال عديدة لم أكن أملك فيها من المال ما يكفي لدفع أجر مبيتي، ولو على سرير صغير في حجرة بواب. وكان هذا الكوخ أشبه ببيت للنباتات المرهفة، ذا ألواح زجاجية في الجانب المطل على الجسر.. وقد كان يتخذ كمخزن لأدوات الفلاحة وأصص الزهور. كما كان يحفظ فيه عدد من التماثيل الرخامية النصفية –التي هشم الصبية أنوفها أو رؤوسها– بغية إصلاحها.

واتجهنا إلى الحاجز، فجلس "لوروسو" فوقه، وأشعل لفافة. وظل جالسا، محافظا على توازنه، وهو يدخن في مظهر متواقح. وغشيتني –في تلك اللحظة– كراهية عارمة نحوه، حتى لقد فكرت جديا في أن أدفعه فألقى به من فوق

الحاجز.. ولو أنني فعلت لهوى من ارتفاع مائة وخمسين قدما تقريبا، ولتهشم تهشم البيضة على أرض طريق (مورو تورتو) المرصوفة.. وكان بوسعى إذ ذاك أن أهرع هابطا إليه، فأستولى على الحذاءين البديعين اللذين كنت أغبطه عليهما!

واغتظت لهذه الفكرة، إذ فطنت إلى أنني قد خدعت نفسى واستدرجتها إلى كراهية "لوروسو" في عنف زين لي أن أقتله.. وما كان لذلك من سبب حقيقي –في الواقع– سوى ذلكما الحذاءين اللعينين.. وكان سيان عندى أن أظفر بحذاءى "لوروسو"، أو حذاءي سواه، فالمهم –في الأمر– هو أن أحصل على حذاءين!.. ومع ذلك، فلعلى كنت موشكا أن أدفعه فعلا –إذ كنت قد سئمت التجوال، كما أنه كان قد بدأ يثقل على أعصابي إلى درجة لم أعد أطيقها– لولا أن الحظ ساق في تلك اللحظة، وعلى حين غرة، طيفين أسودين، مرا جد قريبين منا، حتى كادا يحتكان بنا.. كانا طيفين متلاصقين متخاصرين.. عاشقين!

ومرا أمامي تماما.. وكان الرجل أقصر من المرأة، ولكني لم أستطع أن أتبين وجهيهما. وإذ بلغا "البوابة"، بدا على المرأة التردد والمقاومة. وسمعت الرجل يغمغم: "لندخل هنا!"، وأجابته المرأة: "ولكن المكان مظلم"، فقال: "وفيم يهمنا هذا؟". ومهما يكن من الأمر، فإنها انصاعت في النهاية، ودفعا "البوابة"، ثم غابا داخل الكوخ. وإذ ذاك تحولت إلى لوروسو قائلا: "هذا عين ما كنا نبغى.. لقد ولجا بيت البنات ليكونا في عزلة هادئة.. وكل ما علينا الآن هو أن ندعي أننا من رجال البوليس السرى، ونتظاهر بأننا نفاجئهما وهما ينتهكان حرمة القانون، ثم نأخذ نقودهما!"

فطوح لوروسو بلفافته بعيدا، وهو يقفز عن الحاجز، وقال لي: "حسنا.. ولكني أبغي الفتاة". وبهت.. وسألته: "ماذا تقول؟"، فعاد يكرر: "أريد الفتاة.. ألا تفهم؟.. إن هذا ما أعتزمه، على أية حال". وإذ ذاك، أدركت غرضه،

فقلت: "ولكن، ما الذي ترمى إليه؟.. أتراك جننت؟.. ليس بوسع رجال البوليس السرى أن يفعلوا شيئا من هذا القبيل". فقال: "وفيم يعنين هذا؟.. ما شأنه بي؟" كان يتكلم بصوت غريب مختنق، ومع أننى لم أكن أتبين وجهه، إلا أنني أدركت من لهجته أنه كان جادا. فأجبته في حزم: "إذن، فلن نفعل شيئا في هذه الحال!"

– ولم لا؟

– لأنني أقول: لا.. لن أسمح بأن تعامل النساء بهذه الطريقة!

– وهب أنني أريد أن أعاملهن كذلك؟

– في هذه الحال، لن أحجم عن أن أضبك.. وأقسم على ذلك!

وكنا نقف ملاصقين للحاجز، وقد أوشك أنفانا أن يتماسا، ونحن نتشاد. وقال أخيرا: "إنك جبان!". فأجبت في جفاء: "وأنت مغفل!". وما لبث أن قال فجأة في غيظ منى لأنني كنت أحول بينه وبين إرضاء رغبته في الظفر بامرأة "لا بأس إذن.. لن أمس الفتاة، ولكنى –في مقابل ذلك– سأقضي على الرجل".

– ولكن، لماذا.. لماذا أيها الأحمق اللعين؟

– لابد من ذلك.. أما الفتاة، وأما الرجل!

وتململت، إذا كان الوقت يمر سراعا، وما كان من المحتمل أن تتكرر فرصة كهذه، ومن ثم قلت في النهاية: "حسنا.. لك أن تقضى عليه، إذا اقتضت الضرورة.. على أنني أحب أن تفهم أن لا توجه إليه الضربة القاضية، إلا إذا أشرت لك بهذه الحركة!".. ومسحت بيدي على جبيني، أريه الإشارة التي أقصدها، ويعلم الله السر في هذا الشرط.. فلعلي قيدت "لوروسو" به لأنه كان

ذا غباء مطلق.. والمهم في الأمر هو أنه قبله لفوره، فسألته أن يكرر وعده بأنه لن يقدم على أية حركة ما لم تصدر الإشارة المتفق عليها مني.

ودفعنا البوابة، ودلفنا إلى الداخل، أحدنا خلف الآخر.. وإلى أحد جانبي المكان، كانت الحافلة –التي يجرها حمار صغير، وتحمل الأطفال بالنهار في جولات خلال طرق الحدائق– تقف ملاصقة للحاجز.. وفي ركن بين الحاجز والبوابة، كان ثمة عمود يحمل مصباحا راح يلقي ضوءه عبر المكان، وخلال الألواح الزجاجية، إلى داخل الكوخ مباشرة. وكان بوسعك أن ترى –داخل الكوخ– صفوفا وصفوفا من أصص الزهور، وقد رتبت بعناية حسب أحجامها. وظهر خلف الأصص عدد من تلك التماثيل الرخامية النصفية وقد استوت على الأرض، وبدت –ببياضها وجمودها– ذات أشكال عجيبة، فكأنها أناس انبثقت صدورهم وما فوقها، من جوف الأرض.

وانقضت لحظة لم أر فيها أثرا للعاشقين، ثم اكتشفتهما في الركن الأقصى من الكوخ، بعيدا عن النور.. كانا في ركن مظلم، ولكن الفتاة كانت تقف بحيث يقع عليها شعاع من ضوء المصباح القائم في الخارج، فاستطعت أن أتبينها بيدها البيضاء التي تركتها تتحسس ثوبها في خمول، وهي تغيب مع الرجل في قبلة.

ودفعت الباب ففتحته، وأنا أقول: "من هناك؟.. ماذا تفعلان هنا؟"

وتقدم الرجل لفوره، بطريقة تنم عن عزم، بينما مكثت المرأة في الركن ولعلها كانت ترجو أن لا نراها وكان الرجل شابا، قصيرا، ذا رأس كبير، ولا يكاد يكون له عنق.. وكان وجهه منتفخا، وعيناه جاحظتين، وشفتاه بارزتين.. ولمحت لفوري أنه كان مليئا بالاعتداد، وإن لم يكن جذابا البتة. وبحركة تلقائية، خفضت بصري إلى قدميه فتأملت حذاءيه، وتبينت أنهما جديدان، من النوع الذي أحبه.. النوع الأمريكي، ذي النعل المطاط "الكريب"، وقد صيغا على

نمط "الموكاسان". ولم يبد على الرجل أنه خائف إطلاقا، فأثار هذا انفعالي، حتى أن عضلات وجهي راحت تختلج أكثر مما اختلجت في أية مناسبة أخرى، من قبل.

وهتف متسائلا: "وأنتما؟.. من تكونان؟"

وأجبت: "بوليس!.. ألا تعرفان أن تبادل القبلات في الأماكن العامة محرم؟.. إنكما تخرقان القانون.. وأنت يا آنسة، أرجو أن تقتربي، لا جدوى من محاولتك الاختباء!"

وانصاعت، فاقتربت ووقفت إلى جوار صاحبها. كانت –كما ذكرت– أطول منه قليلا، نحيلة، ذات قوام متماسك ملتف، في ثوب أسود، على شكل ناقوس، ينسدل إلى منتصف المسافة بين ركبتيها وكعبيها. وكانت جميلة، يشبه وجهها وجه "المادونا" –في لوحة العذراء– وقد أوتيت شعرا فاحما طويلا، وعينين سوداوين واسعتين.. وكانت تبدو من الفتيات الجادات، المحتشمات، فلا أر لمواد الزينة على وجهها.. بل كانت من الحشمة بحيث أنني كنت خليقا بأن أعتقد أنها عاجزة عن التقبيل، لو لم أكن قد رأيتها تتبادل القبلات مع صاحبها، ولكي أزيد من التظاهر بأنني من رجال البوليس، قلت لها: "ألا تعرفين يا آنسة أن التقبيل في الأماكن العامة ممنوع؟.. ثم إنه –بالنسبة لفتاة محترمة مثلك– عمل مشين.. أن تقبلي رجلا في الظلام، في حدائق عامة، كأية مومس.."

وهمت بأن تجيب، ولكنه استوقفها بحركة منه، ثم استدار نحوى، وقال: "إذن، فأنا أنتهك القانون.. أليس كذلك؟.. أطلعاني على أوراقكما!"

– أية أوراق؟

– الأوراق التي تثبت شخصيتيكما لأعرف أنكما من رجال البوليس حقا

وأومض في ذهني خاطر أوحى إلى بأنه نفسه كان –ولابد– من رجال

البوليس.. وما كان هذا ليدهشني، نظرا لما عهدته من سوء الحظ عادة. ولكنني أجبته بخشونة: "لا تكثر من الكلام.. أنك

تنتهك القانون، ولابد لك من أن تدفع الثمن!"

فقال بحدة، وكأنه محام: "أدفع الثمن.. حقا!".

وكان بوسعك أن ترى بجلاء أنه لم يكن خائفا. وأردف يقول: "رجلا بوليس، حقا!.. رجلا بوليس بمثل هذين الوجهين!.. وهو بتلك السترة الواقية من الريح، وأنت بحذاءيك هذين!.. أغبى أنا بالشكل الذي تظنانه حقا؟"

وتملكني نوع من الغضب الأهوج، إذ ذكرني بحذاءي.. اللذين كانا ممزقين، لا يمكن أن يمتا –في حالهما هذه– إلى رجل بوليس.. وأخرجت المسدس من جيب معطفي الواقي من المطر، ودفعته حتى ألصقته ببطن الرجل بشدة، وأنا أقول: "ليكن، إذن.. لسنا من رجال البوليس.. ومع ذلك فعليك أن تسلمنا نقودك، ولا تثر أية ضجة!"

وكان "لوروسو" –حتى هذه اللحظة– قد وقف بجانبي دون أن ينبس ببنت شفة، وراح يحملق –وهو غافر الفم– كالغبي الذي عهدته.. ولكنه أفاق عندما رآني أتخلى عن التمثيل، ولوح بالمفتاح الانجليزي في وجه الرجل، وهو يقول: "هل فهمت؟.. أسلمنا نقودك، اللهم إلا إذا كنت تريدني على أن أهشم رأسك بهذا". وغاظني تدخله أكثر مما غاظني ما أبداه الرجل من التحدي. أما الفتاة، فقد أطلقت صرخة خافتة، حتى رأت الأداة الحديدية الثقيلة. ولكنني قلت لها بأدب، إذ كنت أعرف كيف أكون مؤدبا إذا شئت: "لا تكترثي له يا آنسة.. أنه أحمق.. لا تجزعي، فلن يمسك أحد بسوء.. عودي إلى ذلك الركن، ودعينا نبحث الأمر فيما بيننا".. وتحولت إلى لوروسو قائلا: "وأنت، أقص هذا المفتاح

بعيدا!". ثم قلت للرجل: "هيا، أسرع!"

ومن الإنصاف أن أقر بأن الرجل كان شجاعا، وإن لم يكن جذابا.. فهو لم يبد أي خوف، حتى في هذه اللحظة التي صوبت فيها مسدسي وألصقته ببطنه. كل ما هنالك أنه دس يده في الجيب الداخلي لسترته، وأخرج حافظة نقوده، وقال: "هاك حافظتي!"، فضغطتها وأنا أدسها في جيبي، واستطعت أن أعرف من ملمسها أنها لم تكن تضم نقودا كثيرة. فعدت أقول: "والآن، أعطني ساعتك!". فنزع الساعة عن معصمه وأسلمنيها قائلا: "ها هي ذي ساعتي". وكانت ساعة زهيدة القيمة، ذات غلاف من الفولاذ. ومن جديد قلت له: "والآن، أعطني قلمك!".. وكان قلما جديا. قلما أمريكيا، انسيابيا، يغيب سنة في عوده..

وإلى هنا، لم يعد ثمة شئ أستطيع أن أساله أن يغطينيه.. أقصد، لا شيء اللهم إلا ذانك الحذاءان البديعان اللذان بهرني منظرهما منذ اللحظة الأولى.. وقال الرجل ساخرا: "أهناك شيء آخر تريده؟". فأجبته بدون تردد: "أجل.. اخلع حذاءيك!".. وعارض في هذه المرة، فهتف: "حذاءاي؟!.. لا!" وهنا، لم أستطع أن أمضي في المقاومة.. والواقع أنني كنت أشعر بميل شديد إلى أن أصفع ذلك الوجه المنبسط، الخالي من الجاذبية.. وهفت نفسي إلى أن أرى تأثير ذلك عليه.. وعلى نفسى أنا الآخر!

لذلك قلت له: "اخلع حذاءيك.. هيا، ولا تستغفلني!". وصفعته بيدي الطليقة، في مباغتة خبيثة. واشتد احمرار وجهه ثم استحال إلى بياض. وخيل إلى أنه يوشك أن ينقض على في اللحظة التالية، بيد أن الفتاة صاحت فيه من ركنها، لحسن الحظ: "أجل يا جينو، أعطهما كل ما يبغيان!".

فعض شفته حتى أدماها، وهو يحملق في، ثم قال: "حسنا.. ليكن ذلك!". ونكس رأسه وهو يتكلم. ثم انحنى وشرع يفك رباطي حذاءيه. وخلعهما حذاء

أثر حذاء، وقبل أن يسلمني إياهما، ظل يتأملهما لحظة في حسرة، مما نم عن أنه كان متعلقا بهما!.. والواقع أنه كان شديد القصر، بدون الحذاءين.. بل أنه كان أقصر من لوروسو، ومن ثم فقد أدركت السر في أنه ابتاع لنفسه حذاءين لهما هذان النعلان السميكان!

وعند هذا الحد، وقع الخطأ.. فقد سألني الرجل وهو يقف في مكانه، حافيا إلا من جوربيه: "ما الذي تبتغيه في هذا الدور؟.. أتريد قميصي أيضا؟..". وأوشكت –وأنا أمسك بالحذاءين في يدى– أن أجيبه بأن فيما أخذت الكفاية، وإذا بشيء يمس جبهتي مسا خفيفا.. ولم يكن ذلك الشيء سوى عنكبوت هبط من سقف بيت النبات إلى نهاية الخيط الذي كان ينسجه.. وانتبهت إليه لتوى، فرفعت يدى إلى جبهتي، أذبه عنها.. وإذا بلوروسو –بما عهد عنه من غباء حيواني– يظن أنني أصدر إليه الإشارة، فرفع المفتاح الإنجليزي وانهال على مؤخر رأس الرجل بضربة عنيفة!

وسمعت للضربة صوتا مكتوما، شديدا، وكأنما دق لوروسو حجرا.. وانكفأ الرجل لفوره، محاولا أن يحتضنني في سقوطه كالسكران.. ثم انزلق على الأرض. فانطرح على ظهره ووجهه إلى أعلى، وقد فتح عينيه على وسعيهما، وكاد أنساناهما أن لا يبينا.. وأطلقت الفتاة صرخة حادة، واندفعت من ركنها، فانحنت عليه، وراحت تناديه باسمه وهو مسجى على الأرض لا حراك به. ولست بحاجة –لكي أبين مدى غباء لوروسو –إلى أن أذكر أكثر من أنه عاد إبان الارتباك، فرفع المفتاح الانجليزي فوق رأس الفتاة الجاثية، وهو ينظر نحوي في تساؤل، ليعرف ما إذا كان له أن يغدر بها كما غدر صديقها.. فصرخت فيه: "أمجنون أنت؟.. هيا، لننصرف!"

وبادرنا إلى الفرار.. وما أن غدونا في الطريق ثانية، حتى قلت للوروسو:

"والآن، سر وئيدا، وكأننا جئنا لنتمشى.. لقد ارتكبت الكفاية من الحماقات ليومك!". فخفف من سرعة خطواته، بينما دسست كل حذاء في جيب من جيبي معطفي الواقي من المطر، أثناء سيري .. وقلت للوروسو: "ما أراني بحاجة إلى أن أذكر لك مدى غبائك.. أي شيطان جعلك تقرر أن تضرب الرجل بهذا الشكل؟".. فتطلع إلي، وقال: "أنت الذي أصدرت الإشارة لي"

– أية إشارة تزعم؟.. إنما كنت أزيح عنكبوتا مس جبهتي

– وكيف كان لي أن أعرف هذا؟.. لقد أصدرت لي الإشارة وبلغ بي الغيظ منه مبلغه، حتى أنني كنت على استعداد لأن أخنقه.

فقلت مهتاجا: "إنك غبي، مطلق الغباء.. من المحتمل أنك قتلته!". وهنا بدأ يعارض، وكأنني أهنته.

فقال: "كلا.. إنما ضربته بظهر المفتاح الإنجليزي، حيث لا نتوء ولا بوز.. ولو أنني أردت أني أقتله، لضربته بمقدم المفتاح، لأنه مدبب!"

ولم أقل شيئا، ولكنني كنت أتميز غيظا، وراح وجهي يختلج في عنف، حتى أنني اضطررت إلى وضع يدى على خدي لأرد إليه سكونه. بينما كان هو ماضيا في الحديث: "أرأيت كم كانت الفتاة جميلة؟.. لقد أوشكت أن أقول لها: "تعالى يا جميلتي، هيا يا عزيزتي!".. وكان من المحتمل أن تسر وترضى.. كان خطأ مني أنني لم أحاول..".

ومضى يحجل في مشيته وهو راض عن نفسه، وراح يحدثني عما كان يود أن يفعله بالفتاة، وكيف كان يفعله، حتى صحت فيه أخيرا: "إنني آمرك بأن تغلق هذا الفم الحيواني الذي أوتيته، وأن تسكت.. وإلا فلن أضمن أن.."

وأمسك عن الكلام، فسرنا معا إلى طريق (فلامينيو) الممتد بحذاء النهر،

واجتزنا الجسر، ودلفنا إلى ميدان الحرية.. وهناك، كانت ثمة مقاعد تحت الأشجار الوارفة، ولم يكن ثمة من إنسان على مقربة.. وكان الضباب يزحف من نهر (التيبر). فقلت: "لنجلس هنا لحظة، ولنتبين ما غنمنا.. ثم إنني أود أن أجرب الحذاءين!"

وجلسنا على مقعد، ثم بدأت بحافظة النقود ففتحتها، ووجدت أنها لم تكن تضم سوى ألفي ليرة، اقتسمناها بالتساوي. ثم قلت للوروسو: "أنك لا تستحق شيئا، في الواقع.. على أنني رجل عادل، ومن ثم فسأعطيك الحافظة والساعة.. وسأحتفظ بالحذاءين والقلم.. فهل هذا عدل؟" واعترض لفوره قائلا: "إنه ليس عدلا بالتأكيد.. إنه لتصرف عجيب، في الواقع.. إن نصيبي هو النصف". فأجبته مغضبا: "ولكنك ارتكبت خطأ أرعن، ومن الإنصاف أن تدفع ثمنه"

وقصارى القول أننا تجادلنا فترة من الوقت، ثم اتفقنا في النهاية على أن أحتفظ بالحذاءين، وأن يأخذ هو الحافظة، والقلم، والساعة. بيد أنني لم ألبث أن قلت له: "وما الذي ستفعله بالقلم؟.. أنك لا تكاد تعرف كيف تكتب اسمك؟"

فأجاب: "إذا شئت أن تعرف حقا، فأنا أقرأ وأكتب، إذ أنني كنت في المدرسة الأولية.. فضلا عن أن بوسعي – في أي وقت – أن أبيع قلما كهذا، في ميدان كولونا"

وسلمت له، لأنني كنت جد مشوق إلى اللحظة التي أستطيع فيها أن أطوح بحذاءي القديمين، كما أنني كنت –إلى جانب ذلك– قد سئمت الشقاق. فضلا عن أن انفعالي العصبي أحدث مغصا في معدتي. ومن ثم فقد خلعت الحذاءين القديمين، وحاولت أن أدس قدمي في الجديدين، ولكني تبينت أن الحذاءين كانا يصغران قدمي كثيرا.. وكما هو معروف، لكل داء علاج يستطب به، إلا الحذاءين الصغيرين عن القدمين!.. لذلك قلت للوروسو: "اسمع!.. إن

هذين الحذاءين جد صغيرين بالنسبة لي، ولكنهما ملائمان تمام الملاءمة لقدميك، فلنتبادل!.. أعطني حذاءيك، فهما كبيران جدا عن قدميك، وسوف أعطيك هذين، وهما أفضل من حذاءيك وأكثر جدة!"

وفي هذه المرة، أرسل صفيرا طويلا، كأنه يبدي استخفافه وازدراءه، وأجاب: "يا لك من مغفل كبير.. أنني قد أكون غبيا، ولكني لست من الغباء بالدرجة التي تحسبها!"

– ماذا تعني؟

– أعني أن وقت الإيواء للفراش قد حان ونظر في زهو إلى ساعة الشاب، ثم أردف: "إن ساعتي تشير إلى الحادية عشرة والنصف.. فكم ساعتك؟". ولم أقل شيئا، بل أعدت حذاءي إلى جيبي معطفي الواقي من المطر. واستقللنا الترام، وأنا متململ –طيلة الوقت– لما رأيته في نصيبي من حيف، أفكر في مدى غباء لوروسو، وأعجب مما ينبغي أن أفعله لكي أحمله على أن يعطيني حذاءيه في مقابل حذاءي.

وإذ غادرنا الترام، في الحى الذي نقيم فيه، عدت إلى فتح باب المناقشة، فلما رأيت أن المنطق لا يؤدي إلى غاية، ذهبت إلى حد الاستعطاف، قائلا: "إن الحصول على حذاءين مسألة حياة أو

موت بالنسبة لي يا لوروسو.. لن أستطيع أن أمضى في الحياة بدون حذاءين.. إذا لم تكن راغبا في أن تفعل لارضائي، فافعله لوجه الله، على الأقل!"

وكنا في شارع مقفر، في اتجاه (سان جيوفاني). فوقف لوروسو تحت أحد مصابيح الطريق، وشرع يلوي قدمه في هذه الناحية وفي تلك، بطريقة مثيرة، كي يغيظني.. وراح يقول: "يا لهما من حذاءين بديعين –حذاءي– إليسا كذلك؟..

إنهما يثيران حسدك، أليسا كذلك؟.. ولكن، لن يجديك أن تفقد هدوء أعصابك من أجلهما، فلن أنزل لك عنهما!". وشرع يهمهم في لهجة منغومة: "لا، لا، لا.. لم تنلهما من قبل، ولن تنالهما الآن". وراح يبتسم في وجهي ساخرا.

وعضضت شفتي، وأقسمت أنني ما كنت لأحجم عن قتله –لو كان في مسدسي رصاصات– لا من أجل الحذاءين بعد، وإنما لأنني لم أعد أحتمله كذلك.. وبلغنا –على هذه الحال– القبو الذي كنا ننام فيه، فطرقنا النافذة، فخف "البواب" ليفتح لنا الباب، وهو يزمجر كعادته.. وهبطنا إلى الحجرة التي كنا ننام فيها. وكان فيها خمسة أسرة مصطفة في صف واحد. فكان "البواب" وابناه –كانا في مثل عمرنا– ينامون في الثلاثة الأولى، بينما كنت ولوروسو ننام في السريرين القصيين.

وتقاضانا البواب أجر المبيت مقدما، ثم أطفأ النور، واندس في فراشه، بينما رحنا نتحسس طريقنا في الظلام إلى سريرينا، فاستلقينا عليهما. على أنني لم أكد أستقر تحت الغطاء الرفيع، حتى شرعت أفكر في الحذاءين من جديد، وانتهيت إلى قرار .. كان لوروسو ينام وهو في ثيابه، ولكنني كنت أعرف أنه خلع حذاءيه ووضعهما على الأرض، بين السريرين.

فكان بوسعي أن أنهض في الظلام، فألبس حذاءيه، وأترك له حذاءي، ثم أغادر المكان متظاهرا بأنني ذاهب إلى دورة المياه، التي كانت خارج الغرفة، عند مدخل القبو.

وخطر لي أن هذه –على أية حال– خطة محكمة، يحسن بي أن أتبعها، إذ كان ثمة احتمال أن يكون لوروسو قد قتل الرجل –في بيت النبات– فعلا، ومن ثم فقد كان من الخير أن لا أبقى في صحبته. ولم يكن لوروسو يعرف لقبي، وإنما كان يعرف اسمي الأول فحسب، ولذلك فلن يستطيع أن يرشد إلي، إذا ما قبض عليه.

وما إن حزمت أمري، حتى بادرت إلى التنفيذ. فرفعت نفسي عن السرير، ووضعت قدمي على الأرض، وانحنيت في تؤدة وحرص، ثم دسست قدمي في حذاءي لوروسو. وفيما كنت أحكم الرباط، إذا بضربة عنيفة قد وجهت إلي. وتحركت في اللحظة ذاتها فإذا باللكمة تمس أذني، وتهوي على كتفي. وكان لوروسو هو الذي انقض علي، في الظلام، بمفتاحه الإنجليزي اللعين.

وجعلني الألم أفقد صوابي، فقفزت، وانقضضت عليه، على غير هدى. وأمسك بخناقي، محاولا أن يضربني بالمفتاح الإنجليزي، مرة ثانية.. وتدحرجنا على الأرض معا. وأيقظت الجلبة التي أحدثناها البواب وابنيه، فأضاءوا الحجرة. وكنت أصرخ: "القاتل!".. وكان لوروسو يصرخ: "اللص!".. وشرع الآخرون يصرخون، وهم يحاولون أن يفرقوا بيننا. ثم حاول لوروسو أن يصيب بمفتاحه البواب، فإذا البواب –الذي كان سريع الهياج، يكفي أتفه أمر لإثارته– يمسك مقعدا، ويحاول أن يهوي به على رأس لوروسو.. واتخذ هذا لنفسه موقفا في الطرف القصي من الحجرة، محتميا بالحائط، وراح يصرخ وهو يلوح بالمفتاح الإنجليزي: "تعالوا إذا كنتم تجسرون.. سأقضى عليكم.. عليكم جميعا.. أنا مصدر فزع روما!"

كان كالمجنون، وقد أحمر وجهه، وجحظت عيناه.. وكان الغيظ والقهر قد سلباني عقلي –أنا الآخر– في تلك اللحظة، حتى أنني صحت في غير حكمة: "احذروه"، فقد قتل رجلا منذ دقائق معدودات.. إنه قاتل!"

واقتضب القصة فأذكر أن أحد ابني البواب تسلل إلى الخارج بينما كنا نحاول أن نمسك لوروسو ونشل حراكه، وهو مستمر في صراخه كالمجنون فاستدعى الشرطة.. ومن كلمة مني وكلمة من لوروسو، استطاعوا أن يعرفوا ما حدث في بيت النبات، فألقوا القبض علينا. وساقونا إلى قسم البوليس، وكان

كل ما عليهم هو أن يتصلوا تليفونيا ليتحروا الأمر، ثم اتهمونا للفور بأننا الرجلان اللذان قاما بحادث العدوان في حدائق بورجيزى. وقلت أن لوروسو هو المعتدي، فلم ينبس –من ناحيته– بكلمة، في هذه المرة.. ولعل ذلك كان راجعا إلى أنه فقد حواسه، لفرط الضرب.

وقال رئيس الشرطة: "يا لكما من رائعين!.. حقا، أنكما لرائعان!.. سرقة بالإكراه، ومحاولة اغتيال!" ولكن.. لكي أريكم مدى عدم إدراك لوروسو للمسئولية، يكفي أن أقول أنه ما لبث –بعد لحظات– أن أفاق، فتحامل على نفسه، وتساءل: "أي يوم من أيام الأسبوع غدا؟".

فلما قيل له أنه يوم الجمعة، قال وهو يفرك يديه: "آه، هذا بديع.. سيكون الغداء حساء "اللوبيا"

في سجن ريجينا كويلى!"

هكذا عرفت أنه كان قد قضى في السجن فترة، مع أنه كان قد اعتاد أن يقسم لي أنه لم يدخل السجن إطلاقا. وفيما كنت أنظر إلى قدمي –بعد ذلك– رأيت أنني كنت لا أزال ألبس حذاءي لوروسو، فخطر لي أنني –رغم كل شيء– قد ظفرت، في النهاية، بما كنت أبغى!

## لن أقول: لا؟

لكى أساعدك على أن تفهم شخصية "أديل"، أحب أن أروي لك –في صراحة– ما حدث في ليلة زفافنا كانت "سماء النهار حمراء.."، كما يقولون!

لا بأس، فبعد العشاء في مطعم في "تراستيفيرى" وبعد شرب الأنخاب، وبعد القصائد، والدعوات والتمنيات الطيبة، وبعد العناقات والدموع التي ذرفتها حماتي، انطلقنا إلى داري، التي كانت تعلو المتجر الذي أبيع فيه الحديد، في طريق (ديللا انيما).

كنا قد غدونا زوجين، وكان كل منا يعاني شيئا من الخجل. فلما ضمتنا حجرة النوم، بدأت بخلع سترتي. وفيما كنت أعلقها على ظهر مقعد، قلت على سبيل المحاولة لتبديد الجو المتوتر الذي لفنا: "إنهم يقولون أن هذا بشير السعد والفأل الحسن.. هل لاحظت؟.. لقد كنا ثلاثة عشر شخصا حول المائدة.." وكانت "اديل" قد خلعت الحذاءين الجديدين اللذين آذيا قدميها، ووقفت أمام مرآة خزانة الثياب، تتأمل نفسها.

فقالت لفورها، في لهجة تنم عن سرور، وكأنما الذي قلته قد بدد استحياءها: "لا يا جينو، في الواقع.. لقد كنا اثنى عشر.. عشرة ضيوف، ونحن الاثنان، فيكون المجموع اثنى عشر". ولكننى –للمصادفة– كنت قد أحصيت عدد الحضور في المطعم، لا سيما وقد أردت أن ألزم الدقة في طلب الطعام والشراب. وتبينت –عندما عددتهم– إننا كنا ثلاثة عشر شخصا فعلا، ومن ثم فقد قلت للودوفيكو، أحد شاهدي الزواج: "هناك ثلاثة عشر شخصا.. آمل أن لا يجلب هذا النحس!". فأجابني: "أبدا.. بل أنه على النقيض– مجلبة للسعد!".

وجلست على حافة السرير، وبدأت في خلع "البنطلون"، وأنا أجيب —في الوقت ذاته— بهدوء: "إنك مخطئة.. كان عددنا ثلاثة عشر.. فقد لاحظت ذلك بوجه خاص، وذكرته للودوفيكو كذلك". ولم تجب "آديل" في تلك اللحظة، إذ كان رأسها ونصف جسمها محشورين في الثوب الذي كانت منهمكة في خلعه. على أنها في اللحظة التي تخلصت منه فيها، قالت بحدة، دون أن تتيح لنفسها لحظة تتمالك فيها أنفاسها: "لقد أخطأت في العد.. كنا ثلاثة عشر في الشارع، ولكن "ميو" لم يلبث أن أنصرف، ولم يبق سوى اثني عشر".

وكنت إذ ذاك قد أصبحت في ثيابي الداخلية. وفجأة، تملكني الغضب، دون أن أدرك لذلك سببا. فقلت: "وما الذي يقحم "ميو" في هذا؟.. أؤكد لك أنني عددت الجميع في المطعم". فقالت وهي تسعى إلى خزانة الثياب فتودعها ثوبها: "حسنا.. إذن فمعنى هذا أنك —عندما عددتهم— كنت قد أسرفت قليلا في الشراب.. هذا غاية ما في الأمر".

– ماذا تعنين؟.. أسرفت قليلا في الشراب؟!.. أعتقد أنني لم أتناول أكثر من كأسين...

– مهما يكن الأمر، فقد كنا اثني عشر.. وأنت لا تتذكر، لأنك ثملت، فبدأت ذاكرتك تخدعك!

– من الذي ثمل؟.. ماذا تعنين؟.. لقد كنا ثلاثة عشر

– بل أؤكد لك أننا كنا اثنى عشر

– ثلاثة عشر..

– اثني عشر..

وكنا قد غدونا وجها لوجه، في وسط الحجرة.. وأنا في ثيابي الداخلية، وهي في قميصها الداخلي.

وأمسكت بذراعيها، وصرخت في وجهها: "ثلاثة عشر".

ولكنني لم ألبث أن أبدلت تفكيرى فجأة، فغمغمت وأنا أحاول أن أعانقها: "ليكونوا ثلاثة عشر أو اثني عشر.. فما قيمة هذا؟.. هات قبلة!". ولكنها ارتمت على الفراش.

ومع أنها لم تأب على القبلة، فإنها همست لشفتي، في اللحظة التي كانتا تلتصقان فيها بشفتيها: "أجل.. ولكنا كنا اثني عشر شخصا!"

وقفزت مرتدا عنها إلى وسط الحجرة، وصحت: "هذه بداية سيئة. إنك زوجتي، ومن واجبك أن تطيعيني... إذا قلت لك أننا كنا ثلاثة عشر، فمعنى هذا أننا كنا ثلاثة عشر، وليس لك أن تعارضيني!"

وإذ ذاك، نهضت هى عن الفراش، وصرخت بشدة: "أننى زوجتك، أو بالأحرى، سأكون زوجتك.. ولكنا كنا اثنى عشر!"

– إذن، فإليك هذا، ليؤكد لك أننا كنا ثلاثة عشر!

وهكذا تلقت الصفعة الأولى، وكانت قوية مدوية. وبدت "أديل" لحظة كما لو كانت قد سمرت في مكانها فاقدة الحس، ثم أسرعت تجري إلى حجرة الجلوس، ففتحت بابها، وصرخت وهي تقف عند عتبتها: "لقد كنا اثني عشر.. ودعني وحدى.. فإنك تثير اشمئزازي!"

ثم اختفت في الحجرة الأخرى...وتمالكت نفسي بعد أن استغرقتني الدهشة لحظة، فسرت إلى الباب، ورحت أطرقه، وأنادي، وأرجو، ولكن.. ما

من صوت تناهي إلى أذني!.. وكانت نهاية الأمر، أنني قضيت ليلة زفافي وحيدا، أغفو على حافة الفراش، وأنا في ملابسي الداخلية.. أما هي، فأعتقد أنها كانت مثلي، على الأريكة، في حجرة الجلوس.

وفي اليوم التالي، ذهبنا لزيارة أمها، وسألناها عما كان عليه عددنا حول المائدة. واتضح أننا كنا أربعة عشر شخصا في الواقع، نظرا لوجود صبيين كانا من الصغر وضآلة الحجم، بحيث أنهما انزلقا عن مقعديهما، وراحا يلعبان تحت المائدة. فلما قمت بإحصاء الحضور، كان أحد الصبيين تحت المائدة.. وفي الوقت الذي أحصتهم فيه "أديل"، كان الصبي الآخر قد اختفى معه!

وهكذا كان كل منا على صواب. ولكن "أديل" –كزوجة– كانت على خطأ!

ولقد أعقبت هذه المرة الأولى، مناسبات لا حصر لها، أبدت فيها "أديل" هذا الجانب الشديد العناد من شخصيتها. كان لها ولع جنوني باللجاج في التوافه فإذا قلت أن هذا أبيض، قالت إنه أسود، ولا ترجع قط عن إصرارها، ولا تقر البتة بأنها مخطئة. ولو أنني أردت سرد هذه المناسبات لما انتهيت من هذا الحديث. مثال ذلك المرة التي ظلت فيها نهارا بأكمله، وهي تصر على أنها لم تتسلم النقود المخصصة لنفقات البيت، حتى إذا مضت في الجدال أربعا وعشرين ساعة كاملة، إذا بالنقود على حافة النافذة الصغيرة في دورة المياة، تنعم بالنسيم العليل، كوردة في كوب ماء!.. ولقد استمر النقاش على حافة النافذة، في حين أنني برهنت لها، بعرض وقائع صادقة، أن هذا كان أمرا مستحيلا، وأنها هي التي كانت قد ذهبت –في الواقع– إلى تلك البقعة المتوارية، بعد أن تلقت مني النقود، وليس قبل ذلك!.. أو تلك المرة التي أصرت فيها – بعنادها المعهود– على أن "اليساندرو"، ساقي المقهي المواجه للبيت، كان أبا لأربعة أطفال، في حين أنني كنت أعرف –تمام المعرفة– أنه لم يرزق سوى ثلاثة

أطفال فقط. وهكذا استمررنا في لجاج أسبوعا كاملا، إذ كان الساقي متغيبا. ثم

عاد، وإذ ذاك تبينا أنه لم يكن قد رزق بغير ثلاثة أطفال، عندما بدأ الجدال، ثم أصبح أبا لأربعة، لأنه رزق بطفل جديد، في تلك الأثناء!

وكان كل هذا عبثا في الواقع.. وكما يحدث عادة في مثل هذه الأمور، كنت أنا المصيب أحيانا، وكانت هي على صواب في أحيان أخرى. ولكن الشئ الذي كنت أحاول عبثا أن أفهمها إياه، هو أنه ليس من المهم أن يكون المرء على صواب، وإنما المهم هو أن عيبها الذي يزين لها أن تجادل في كل تافه من الأمور، لن يلبث أن ينتهي إلى إفساد كل شيء.

وكانت تجيب قائلة: "إنك لا تريد زوجة، وإنما تريد جارية!".

وهكذا بليت علاقاتنا وتوترت خلال هذا الجدال المستمر. فما إن كنت أذكر شيئا، ولو كان أبعد الأشياء عن الشك والجدال —كأن أقول: "إن اليوم مشرق الشمس" مثلا— حتى أشعر بالغضب يستولى على فعلا، لمجرد التفكير في أنها قد تعارضني.. وكنت أتطلع إليها، فلا تلبث فعلا —وبكل يقين— أن تقول، بدون تردد: "أوه، لا يا جينو.. لا أثر للشمس اليوم.. إن السحب تملا السماء!". وإذ ذاك، كنت أتناول قبعتي، وأندفع مغادرا البيت، إذ أنني كنت خليقا بأن انفجر سخطا وغيظا، إذا مكثت لحظة أخرى!

وفي ذات يوم —من أيام تلك الفترة— كنت أنطلق في طريق (ريبيتا)، وإذا بي ألتقي بجوليا، وهي فتاة كنت أعتزم خطبتها قبل أن أتعرف إلى "أديل" بوقت قصير، ولكنني سرعان ما مللتها —إذ ذاك— لأنها لم تكن بالنسبة لي ذات شخصية مستقلة بدرجة كافية، إذ كانت توافقني على كل ما أقول —مهما يكن— ولم تقل مرة أنني أخطأت، ولو كان خطأي باديا لأي أعمى!.. أما بعد

أن تزوجت من امرأة ذات شخصية مستقلة، وأخذت استمتع بهذا الاستقلال كل الاستمتاع، فإنني تحسرت على جوليا، أن أركل نفسي إذ فضلت عليها "أديل".

ولقد سرني كل السرور أن قابلت "جوليا" في ذلك الصباح، لمجرد الفارق بين شخصيتها وشخصية "أديل"، إن لم يكن لشئ آخر. ومن ثم فإنني مضيت أتحدث إليها –بينما كانت تحاول أن تنصرف، زاعمة أنها مضطرة إلى الذهاب إلى السوق لتبتاع لوازمها– لمجرد الاستمتاع بأن أراها توافقني على كل شيء، وأن أراها محتفظة بلطفها، فلا تعارضني إطلاقا. وقلت على سبيل الامتحان: "هل أنت آسفة حقا لأنك أسأت معاملتي؟.. هل تبينت أنني كنت أفضل من كثير جدا من الرجال الآخرين؟.. نبئيني، ما السبب في أنك لم ترغبي في أكون زوجا لك؟".

وكنت أعرف أن هذا يجافي الحقيقة، إذ كنت أنا الذي هجرها، وكان السبب الذي أوضحته –

بالنص– هو أنني لم أكن لأحفل بمن على شاكلتها من نساء، مسرفات في اللطف.

ولكنني شئت أن أرى أي جواب ترد به على مثل هذا الاتهام الزائف، الجائر. وفتحت الفتاة عينيها على سعتهما دهشة، وهي تنصت إلى هذا القول مني. ومن المؤكد أنها مالت لحظة إلى أن تجيب بأنني أنا الذي أسأت معاملتها – وهي الحقيقة– وأنني أنا الذي هجرتها. على أن شخصيتها طغت على رغبتها، وبدلا من أن تقول ذلك، أجابت بصوتها العذب: "لابد أن ثمة سوء فهم يا جينو... ما كنت لأتركك قط.. أبدا.. فقد كنت جد مشغوفة بك". ولابد أنك تلاحظ أنها لم تتهمني بأنني كنت أكذب، كما كان من المؤكد أن تفعل "أديل".. كانت تحاول أن تبرئ نفسها، ولكنها أقرت أن يعترف بأن بعض الذنب ربما

كان من ناحيتها، لكي ترضيني.

وأطلقت ضحكة قصيرة، مريرة، إذ تبينت مدى الحماقة التي ارتكبتها بإيثاري "أديل" عليها، ثم داعبت خدها وأنا أهتف: "إنني لأدرك أنا الذنب كان كله ذنبي... ولم يكن ثمة سوء فهم، للأسف... وإنما قلت ذلك دون أن أعنيه، لأرى ماذا يكون ردك؟". ثم عدت أداعب خدها، فتضرج وجهها خجلا وسرورا، بينما أسرعت أنا بالانصراف. على أنني التفت خلفي، قبل أن أتحول إلى شارع آخر، فإذا بها لا تزال واقفة على الرصيف، وحقيبة المشتريات معلقة إلى ساعدها، وهي تحملق في مأخوذة، حائرة!

كان ذلك في نهاية شهر مايو.. فلما كان اليوم التالى، انطلقنا –أديل واياى– في زورقي البخاري، إلى (فريجيني)، لننعم بأول حمام بحري. وألفينا الساحل مقفرا.. وكانت السماء صافية الزرقة، والشمس حامية يبهر وهجها البصر، غير أنه كانت ثمة ريح أخذت تهب على سطح الأرض بقوة.. ريح لاذعة مثقلة بالرمال. ولم يكن البحر –بقرب الشاطئ– سوى أمواج.. أمواج خضراء وبيضاء، يتواثب بعضها فوق بعض، وتتصارع معا.. أما على مبعدة من الشاطئ فكانت تتخللها زرقة تكاد تكون سوادا، وقد تناثر خلالها الزبد الأبيض، هنا وهناك..

وقالت "أديل" أنها كانت راغبة في أن تخرج –إلى عرض البحر– في زورق. ومع أنني كنت أبصر البحر في هياجه غير اللطيف، إلا أنني استأجرت زورقا إذا مجدافين، وأنزلته إلى الماء، لكي لا أرفض طلبها، وأسمعها تؤكد لي –كعهدها الذي لا مفر منه– إن البحر كان هادئا ساكنا كسطح الزيت!.. وكنت في زي السباحة، ولكن "أديل" ظلت في كامل ثيابها.

ومرة أخرى، لم أصر على أن تخلع عنها ثيابها، خشية الجدال! ودفع المشرفون على الشاطئ القارب، فتناولت المجدافين، وشرعت في التجديف

بقوة، لأغالب الأمواج المتدافعة. ولم تكن الأمواج عالية، لذلك لم ألبث –بعد أن تجاوزنا المنطقة الرملية– أن خففت من قوتي في التجديف، غير أنني ظللت حريصا على أن أقابل الأمواج بتسلقها، لأن التحول عن طريقها كان خليقا بأن يقلب الزورق، الذي كان في حجم البندقة!

وكانت "أديل" تجلس في المقدمة، ترتفع وتنخفض مع الأمواج. وفجأة، وجدتني وأنا أنظر إليها فأراها في كامل ثيابها، وأتذكر أنني لم أجسر على أن أنصحها بأن تخلع ثيابها أشعر بالغضب، وقد استولت على الرغبة في أن أن أقول لها أنني قد قابلت "جوليا". ومن ثم فإنني رحت أروي لها وأنا أجدف كيف أنني رغبت في أن أمتحن شخصية "جوليا"، وكيف أنها لم تعارضني.

وأصغت "أديل" إلى حديثي، بينما كان الزورق يعلو وينخفض مع الأمواج. ثم قالت في النهاية، بهدوء: "إنك مخطئ.. لقد كان الذنب كله ذنبها هي... أنها هي التي هجرتك!"

ورحت أجذب المجدافين بشدة، تأهبا لملاقاة موجة أضخم مما كنت أتوقع. وأجبت في حنق: "من الذي قال لك هذا؟.. يهمني أن أعرف!.. لقد كنت أنا الذي أوحيت إليها –ذات مساء– أنني لم أعد أشعر بميل في أن ألقاها.. بل إنني لأتذكر المكان الذي كنا فيه إذ ذاك.. كنا في " لنجو تيفرى" وكان في لهجة "أديل" نبرة خبيثة، وهي تجيب وقد راح شعرها يتطاير مع الريح: "هكذا عادتك.. أنك تخطئ في التذكر..هي التي هجرتك... فقد قالت أنك أوتيت شخصية شديدة الميل إلى المشاكسة والشجار وهي الحقيقة فعلا –وأنها لم تشعر بأن في وسعها أن تعيش معك"

– ولكن، منذا الذي قال لك هذا؟

– هي التي أنبأتنيه بنفسها.. بعد حدوثه بأيام قلائل!

– لم يكن هذا صحيحا.. لقد قالت ذلك لكي تتستر على خيبة أملها.. تماما كما قال الثعلب في العنب الذي لم يقو على الظفر به!

– بل هي التي هجرتك يا جينو، فلا تكن عنيدا... وقد أكدت لي أمها ذلك!

– أؤكد لك أنه ليس صحيحا.. أنا الذي هجرتها!

– لا.. لم تكن أنت!

ولست أدرى أي شيطان استولى علي في تلك اللحظة.. كان بوسعي أن أحتمل كل معارضة، وفي أي شيء إلا في هذا الأمر. وأحسب أن كبرياء الرجولة قد تدخل في المسألة.ومهما يكن الأمر، فإنني تركت المجدافين من يدي، وقفزت مستويا على قدمي، وأنا أصيح: "قلت لك أنني.. أنا قلت كلمة أخرى، فسأضربك بالمجداف على أم رأسك!"

فقالت: "حاول وأرني!.. هأنت ذا تغضب، وهذا دليل على أنك مخطئ. إنها التي هجرتك!"

– لا.. بل أنا الذي هجرتها!

وكنت إذ ذاك –أقف في منتصر الزورق، وأنا أصرخ بصوت عال.. وكان من دواعي ذلك، أنني شئت أن أسمعها صوتي عاليا فوق هدير الأمواج. وكان الزورق يرتفع وينخفض، وقد دار جانبا –دون أن أفطن– لأن المجدافين لم يكونا يعملان..

وكانت "أديل" –على ما أتذكر– قد وثبت هي الأخرى واستوت على قدميها فجأة، وراحت تصرخ في وجهى، وهي تحيط فمها براحتيها، وكأنهما بوق: "بل كانت هي!"

وفي تلك اللحظة بالذات، انقضت علينا موجة عالية، كأنها جدار أصم من الماء الأخضر الشفاف –كالزجاج– وقد كللها الزبد الأبيض.. ثم تكسرت فوق الزورق، فاختل توازننا.. ووجدتني أطير في الهواء، وأنا أفكر –في اللحظة ذاتها– في أنه من معجزات الحظ أن الزورق لم ينقلب.. ثم هويت لتوي في الماء، الذي راح يشدني وهو يدور كالدوامة، وقدماي في الهواء.. وابتلعت قدرا من الماء، قبل أن أفلح في الصعود إلى السطح مرة أخرى، وأنا أناضل التيار، وأنادي "أديل" على أنني لم أكد اتلفت حولي، حتى تبينت أن الزورق كان قد ابتعد مسافة، وأنه كان خاليا، ولا أثر هناك لاديل!

وعدت أناديها، وقد شرعت أسبح نحو الزورق، دون أن أدري ما الذي كنت أعتزم أن أفعله. ولكن الزورق كان يزداد بعدا مع كل موجة.. وكان فمي يمتلئ ماء، في كل مرة أنادي فيها "أديل".. ورحت –طيلة الوقت– أفكر في أنه لا جدوى من المضي وراء الزورق، ما دامت "أديل" لم تعد فيه!.. وما لبثت أن كففت –في النهاية– عن متابعته، وشرعت أسبح في دائرة حول نفسي، وأنا أبحث في الماء عن "أديل".

ولكن بصري لم يقع على أثر لاديل.. كل ما كان يرى –إذ ذاك– هي الأمواج تسابق بعضها بعضا نحو الشاطئ.. وأخذت قواي تضمحل وتخذلني. واستولى علي الذعر من أن أغرق، فشرعت أسبح نحو الشاطئ. ولم يمض طويل وقت، حتى مست قدماي قاع الماء، وإن ظلت على

مسافة بعيدة من الشاطئ، فكففت عن السباحة، ورحت أصرخ.. وسرعان ما أبصرت بزورق يدفع في الماء، ثم أخذ يقترب مني.

وفيما كان في طريقه إلي، رحت أتلفت حولي، باحثا في البحر عن أي أثر لاديل. ولكن البحر كان مقفرا إلى أقصى مرمى البصر، اللهم إلا من الزورق

الخاوي، الذي كان يطفو على سطح الماء، ومجدافاه منبوذان!

وشرعت أبكي مرددا: "أديل، أديل!"، مرارا وتكرارا، في صوت خفيض، وكأنني أناجي نفسي. وبدا لي أن صخب الأمواج كان يجيبني في كل مرة: "بل كانت هي!"، وكأنما كان صوت "أديل" —التي اختفت— لا يزال يحوم في الهواء، ليعارضني.

ثم وصل حراس الشاطئ، وراحوا يبحثون لأكثر من ثلاث ساعات، ولكن جثة "أديل" لم تظهر.. لا في ذلك النهار، ولا في الأيام التي أعقبته.

وهكذا ترملت!..

وانقضى عام، ثم استجمعت جرأتي، وذهبت لزيارة "جوليا"، وأجلستني أمها في غرفة المائدة، حتى إذا جاءت هي، بادرتها قائلا: "جوليا".. لقد جئت لأسألك أن تصبحي زوجتي!"

وتضرج وجهها حبورا، ثم أجابت: "لن أقول لا.. ولكن لابد من أن أشاور أمي في الأمر".

وبهت للشطر الأول من جوابها، ثم تذكرته ثانية —فيما بعد— كأنه قال: "لن أقول لا!"

وقد تزوجنا.. وإذا شئت أن ترى زوجين متوافقين في انسجام تام، فتعال لزيارتنا.. لقد ظلت "جوليا" تماما على ما كانت عليه في ذلك الصباح، حين أجابتني: "لن أقول لا!"

# الكنز..!

في الفترة التي كنت أعمل خلالها ساقيا في فندق صغير، خارج (بورتا سان بانكراتسيو)، اعتاد بستاني من زارعي الخضر أن يتردد بانتظام على المكان، وكان كل امرئ يدعوه "مارينيسي"، أما لأنه كان ينتمي إلى (مارينو)، وأما –وهذا هو الأكثر احتمالا– لأنه كان مولعا بنبيذ (مارينو) بوجه خاص. وقد كان هذا الرجل المدعو "مارينيسي" طاعنا في الكبر، حتى لقد كان هو نفسه لا يدري مدى عمره.

ومع ذلك، فقد اعتاد أن يفوق معظم الشباب في الشراب، وكان –أثناء تناوله الخمر– يثرثر مع أي امرئ يحفل بالإنصات إليه.. بل لقد كان يحدث نفسه في الواقع!

ونحن سقاة الفنادق، ننفق الوقت –كما يعلم كل إنسان– في الإنصات إلى أحاديث الرواد، ما لم نكن منصرفين إلى خدمتهم فعلا. وقد اعتاد "مارينيسي" أن يؤثر بالتكرار قصة معينة، دون عدد كبير جدا من القصص غير الحقيقية.. قصة كان لها مظهر الحقيقة.. تلك هي أن الألمان سرقوا صندوقا مليئا بالفضة، من قصر قريب لأحد الأمراء، ودفنوه في بقعة كان هو –مارينيسي– يعرفها!.. وكان في بعض الأحيان –إذا ثمل حقا– يوحي إلى سامعه بأن تلك البقعة كانت في حديقته التي يستنبتها الخضر. وقد اعتاد أن يردد –على أية حال– أن بوسعه أن يغدو غنيا، لو أنه أراد.. وأنه لن يلبث أن يريد، يوما ما. متى؟.. لقد قال –ذات مرة– لشخص وجه إليه هذا السؤال: "عندما أكتهل ولا أعود راغبا في المضي في العمل!". وكان هذا ردا بادي السخف، إذا

كان بوسعك –إذا نظرت إليه– ان ترى أنه ولابد قد تجاوز الثمانين، على الأقل!

المهم في الأمر، أنني لم ألبث أن بدأت أفكر في هذا الكنز، وقد اقتنعت بأنه كان موجودا، لأن سرقة كهذه حدثت قبل بضع سنوات، وإبان الاحتلال ولم يقدر للأمير أن يسترد فضته ثانية.

وكنت كلما فكرت فيه، اغتاظ لوجوده في حوزة "مارينيسي"، الذي أن يلبث أن يقع ميتا في كوخه بغتة –في يوم من الأيام– فلا يعود ثمة سبيل إلى الكنز إطلاقا.

ولقد حاولت أن أتقرب إليه واستدرجه، ولكن الكهل كان يحملني على أن أمنحه كؤوس الشراب، ثم يأبى أن ينبس ببنت شفة، كأي محتال أصيل!.. وكان يقول في النهاية، بجد وعزم بالغين: "لن أخبرك، ولو كنت ابني.. أنك شاب، وفي طوقك أن تعمل.. إن الذين يحتاجون إلى المال، هم الكهول الذين هدت قواهم، ولم يعد بوسعهم أن يمضوا في العمل بعد اليوم!"

وركنت –في النهاية– وفي غمرة اليأس، إلى الساقي الآخر "ريميدجيو"، فأفضيت إليه بالسر.. وكان شابا شاحب اللون، أشقر، يصغرني سنا. وقد تحمس للفكرة لفوره، ولكن في حماقة تتناسب مع ما كان يتصف به من حمق، فراح يبني القلاع في الهواء، ويتصور أننا أصبحنا غنيين، ويحلم بأنه سيبتاع دراجة كهربائية (موتوسيكل)، وبأننا سننشئ معا حانة، وما إلى ذلك. فقلت له: "إن أول ما ينبغي عمله، هو العثور على هذا الكنز، فلا تتحمس أكثر مما ينبغي بشأنه.. لسوف نقسمه إلى أربعة أنصبة.. ثلاثة لي، وواحد لك. أصواب هذا؟".. ووافق على قولي، وهو لا يزال في

تصوراته. واتفقنا على أن نلتقي بعد منتصف الليل، عند بداية طريق (أوريليا) القديم!

وكنا في أوائل مايو، والسماء مرصعة بالنجوم، والقمر يرسل ضوءه على كل شيء –فكان النهار ساطعا– والهواء لطيفا.. ولم يداخلني أي شعور بأنني كنت مقدما على ذنب، إذ أغير على الرجل الكهل.. بل أنني صورت الأمر كله –لنفسي– على أنه مجرد دعابة أو مزحة!

وانطلقنا في طريق (أوريليا)، بين الأسوار العتيقة التي كانت حدائق الخضر وبساتين الأديرة تمتد خلفها. وكنت أحمل معولا، خشية أن يأبى "مارينيسي" إعارتنا معوله، كما أعطيت "ريميدجيو" مجرفة صغيرة من الحديد، لمجرد حملة على أن يقوم بعمل ما. كذلك كنت قد ابتعت مسدسا وكمية من الذخيرة من ميدان (فيتوريو)، ولكنني حرصت على أن أثبت صمام الأمان، فإن المرء لا يدري ما تأتي به الأحداث.

والحق أقول أنني كنت أطرب لفكرة الكنز، حتى أنني أصبحت نادما على أنني أفضيت إلى "ريميدجيو" بذكره، فقد كان معنى هذا انتقاص جزء مما كان من المحتمل أن أظفر به لنفسي. فضلا عن أنني كنت أعرف أن الشاب ثرثاء، وإن المغامرة خليقة بأن تنتهي بنا إلى السجن، لو أنه تكلم! وقد راحت هذه الفكرة تمضني وتزعجني أثناء سيرنا بين الأسوار. ومن ثم فإنني لم ألبث أن توقفت عن السير بغتة، وأخرجت المسدس –الذي لم أكن قد أطلعته على أمره حتى تلك اللحظة– وقلت له: "والآن، حذار.. فسوف أقتلك إذا أنت تكلمت!". فقال وكل كيانه يرتجف: "ماذا تراك تظن بي يا أليسندرو؟" فاستأنفت حديثي: "سنضطر إلى أن نهب "مارينيسي" قسطا ضئيلا، حتى تكون له في الأمر مصلحة ونفع، فلا يشي بنا.. ومعنى هذا أن عليك أن تتنزل عن جزء من

نصيبك.. فهل هذا مفهوم؟". ورد بالإيجاب، فأعدت المسدس إلى جرابه، وواصلنا السير.

وكانت ثمة بوابة عتيقة.. إلى اليمين، على مسافة في الطريق —ذات أعمدة، وقد نقشت على إطارها كلمات لاتينية. وكانت أبوابها خضراء اللون، وقد حال طلاؤها، وتهشمت أجزاءها.. وكنت أعرف أن بستان الخضر —الذي كان مارينيسي يمتلكه– كان يقع خلف تلك الأبواب. وتطلعت إلى رأس الطريق ومنتهاها، فلما لم أر أي أمرئ هناك، دفعت الأبواب، التي لم تكن موصدة، ودلفت إلى الداخل، وريميدجيو في أثري.

واعترف بأنني لم أتمالك أن أطلقت صيحة إعجاب، بالرغم من أنني لم أكن قد أقبلت لابتياع خضر. فيالها من حديقة.. قد استلقى أمامنا، وتحت ضوء القمر الزاهي الساطع، أجمل بستان الخضر وقعت عيناي عليه، في الواقع!.. كانت قنوات الري البراقة تمتد في خطوط طويلة مستقيمة تقريبا، وكأنها رسمت بالمسطرة والمثلث القائم الزاوية.. وكانت الخضر مزروعة بين هذه القنوات، في صفوف، وقد لاحت وكأنها تبرز من جور الأرض في موكب من الأطياف يسعى نحو كوخ "مارينيسي" الصغير، الذي كان شبحه يرى في الطرف الأقصي للبستان.

كانت ثمة ثمار عملاقة من الخس، من ذلك النوع الذي تكفي الواحدة منه لملء ميزان البدال.. وشجيرات رائعة من الطماطم، تستند إلى أعواد من الغاب، وقد كمنت الثمار بين الأوراق خضراء ولكنها كبيرة توشك أن تتفجر لامتلائها.. أما الكرنب فكانت الثمرة منه في حجم رأس الطفل، كما كانت أعواد البصل طويلة، مستقيمة، كأنها السيوف.. وكانت كل ثلاث ثمار أو أربع من الخرشوف، يثقل شجيرة.. كما كانت هناك بازلاء، وفاصوليا، وأنواع أخرى

من الخس.. كانت هناك –بإيجاز– كافة خضر الموسم. وعلى الأرض، رأيت ثمارا من الباذنجان والخيار، وكأنها تركت هنا وهناك لمن يرغب في التقاطها.. كذلك كانت ثمة أشجار للفاكهة وسميكة، محملة بالثمار التي لم تكن قد استكملت نضجها، والتي كانت تطل على ضوء القمر، من خلال الأوراق الخضراء.

لقد كنت خليقا بأن تشعر بأن كل نبتة، وكل شجرة، كانت ذات الفة وثيقة بيد البستاني، وأن الكسب لم يكن العامل الوحيد الذي اعتاد أن يهدي هذه اليد. وتساء ريميدجيو –الذي لم يكن يفكر في غير الكنز– وقد نفد منه الصبر :"أين مارينيسي؟". فأجبته مشيرا نحو الكوخ الذي كان في الطرف الأقصى للبستان: "هناك!" وسرنا في درب صغير، بين صف من الثوم وصف من الكرفس. وداس ريميجيو إحدي ثمار الخس، فقلت له: "تبين مواطئ قدميك أيها الأبلة!". وانحنيت فالتقطت ورقة من الثمرة التي داسها، ووضعتها في فمي، فإذا بها حلوة المذاق، ممتلئة، باردة، وكأنها اغتسلت بالطل.

وهكذا بلغنا الكوخ، فأقبل كلب "مارينيسي" واستقبلني هازا ذيله، بدلا من أن يرسل نباحه. وكان كلبا أصفر، من ذلك النوع الذي يقتنيه أصحاب بساتين الخضر، ولكنه كان ذكيا!

وطرقت باب الكوخ المغلق برفق ثم بشدة.. وما لبثت أن رحت أدقه بقبضتي وبقدمي، عندما لم يخف أحد لفتحه. وإذا بصوت الرجل يجعلنا نقفز مجفلين، إذ أنه لم ينبعث من جوف الكوخ، وإنما أنساب من مجموعة كثيفة من الشجيرات، على مقربة: "من هناك؟.. ما الذي تريدان؟"

وكان يمسك بمعول في يده، مما دل على أنه كان منهمكا في فلح بستانه، حتى في جوف الليل. واقترب منا، تحت ضوء القمر، وقد استرخت ذراعاه إلى جانبيه، وانحنى ظهره، وأحمر وجهه، وكست فوديه شعيرات بيضاء.. كان مثالا

للبستاني الذي ينفق وقته عاكفا على خضرة. وأجبته فورا: "إنما نحن صديقان". فكان رده: "ليس لي أصدقاء ما". ثم ازداد دنوا منا، وقال" "ولكن، أهذا أنت؟.. إنني أعرفك.. ألست أليسندرو؟". فقلت له إنني أليسندرو فعلا. ثم أردفت بلهجة آمرة، وأنا أنتزع المسدس من جيبي، دون أن أسدده: "قل لنا يا مارينيسي: أين الكنز؟.. سنقتسمه فيما بيننا، فإذا أبيت أن تخبرنا، فلن يحول هذا دون أن نأخذه!"

وشهرت المسدس في الوقت ذاته، ولكنه وضع يده الضخمة عليه، وكأنما كان يبغي أن يقول أن لا حاجة هناك لذلك، ثم أحنى رأسه، وتساءل بلهجة المستغرق في التفكير: "أي كنز تعني؟"

– الفضة... التي كان الألمان قد سرقوها

– ولكن.. أي ألمان؟

– الجنود، أثناء الاحتلال.. لقد سرقوها من الأمير.

– أي أمير؟

– الأمير.. وأنت تعرف!.. ولقد قلت أنهم دفنوها في البستان...

– ولكن.. أي بستان؟

– بستانك يا مارينيسي.. إنك لتعرف مكان الكنز، فأرشدنا إليه وانفض يديك من الأمر!

وهنا قال، ورأسه لا يزال منكسا: "آه.. أتقصد الكنز؟".

– أجل.. أقصد الكنز، بلا شك!

فقال في تحمس: "إذن، تعاليا معي.. سنحفر في الحال هل معك معول؟..

سنأتي بمعول آخر ليستعمله صاحبك.. هيا، تعاليا"

وعرتني دهشة، لأنني لم أكن قد توقعت منه أن يتحمس بهذه السرعة. على أنني تبعته، فسار إلى ما وراء الكوخ، وهو لا يزال يتمتم: "الكنز!.. لن تلبثا أن تريا أي كنز بديع هو!". ثم عاد ومعه معول أسلمه إلى "ريميدجيو".

وسار مرددا: "تعاليا.. أنكما تبغيان الكنز، وستحصلان عليه!"

ولم تكن الأرض الممتدة خلف الكوخ قد أفلحت من قبل، بل إنها كانت زاخرة بما لا حصر لها من النفايات وأكوام الفضلات. وكان يليها صف من الأشجار، يقوم خلفه سياج عال، شبيه بالسور المحيط بجانب البستان القائم على طريق (أوريليا). وسلك الكهل الدرب الممتد بحذاء الأشجار، حتى بلغ أقصى بقعة في البستان، حيث كان السياج يؤلف مع الأشجار زاوية. وهنا التفت فجأة، ودق الأرض بقدمه، قائلا: "احفرا هنا.. فالكنز هنا!".. وتناولت معولي، وأقبلت لتوي على الحفر. وراقبني ريميدجيو، وهو ممسك بالمعول الآخر في يده. فقال له مارينيسي: "احفر أنت الآخر.. أو لا تبغي شيئا من الكنز؟".

وإذ ذاك أنكب ريميدجيو على الحفر بكل قوة وعنف، فعاد مارينيسي يقول: "مهلا، اهدأ، لا تنفعل.. ففي الوقت متسع". ومع هذه الكلمات، خفف ريميدجيو من سرعة معوله، فإذا به يهوي على قدمه. فأمسك مارينيسي بالمعول وإداره في يده، ثم قال له: "يجب أن تمسكه هكذا... وعليك أن تضغط قدمك بالأرض، في كل مرة يهوي فيها المعول على هذه، وإلا فلن تتعلم كيف تحفر". وأردف بعد ذلك: "احفرا مسافة متساوية في جميع الاتجاهات.. حوالى ياردتين.. لا أكثر.. فإن الكنز تحت هذه البقعة بالذات.. وفي هذه الأثناء، سأقوم بجولة أتفقد فيها البستان!". فقلت: "لا، لن تذهب.. بل أمكث هنا!".

وكان رده: "مم تخاف؟.. لقد أنبأتكما بأن الكنز ملك لكما!" لذلك مضينا في الحفر، بكل ما أوتينا من قوة، فشققنا سطح الأرض، ورحنا نتعمق، ونوغل في التعمق، متبعين حدود الربع الذي رسمته بسن معولي، وكانت التربة جافة، صلبة، مليئة بالأحجار والجذور. وكنت ألقي بالتراب جانبا، في كومة، فراح مارينيسي الذي لم يكن يفعل شيئا سوى أنه يقصي الأحجار بقدمه، أو يوجه إلينا الإرشادات.. "لا تتعجلا إلى هذا الحد.. استأصلا الجذور.. انتزعا الأحجار!". وأنتزعنا من الأرض عظمة طويلة سوداء، فتناولها وفحصها، ثم قال: "إنها عظمة جاموسة.. ها أنتما قد بدأتما تعثران على أشياء!". ولم يكن بوسعي أن أجزم بما إذا كان يتكلم جادا، أو أنه كان يمزح.

وتصببت عرقا بالرغم من أن الليل كان باردا.. ورحت أرمق ريميدوجيو — بين آن وآخر– فغاظني أن أري أنه هو الآخر كان يلهث ويضني نفسه في تحمس. وواصلنا الحفر زمنا طويلا، دون أن يظهر لنا شيء. وكنا في تلك الأثناء قد أحدثنا ثغرة مربعة يزيد عمقها على ثلاثة أقدام، فإذا التربة التي في قاعها رطبة، طرية، سمراء.. ومع ذلك فلم يلح لنا ما ينم عن صندوق أو كيس أو أي شيء من هذا القبيل!

وعلى حين غرة، أمرت ريميدجيو بأن يكف عن الحفر، ثم صعدت إلى خارج الحفرة، وقلت لمارينيسي: "قل لي الآن، أين هذا الكنز؟.. لا أثر له البتة هنا، وأعتقد أنك تغرر بنا "

فأقصى غليونه عن فمه، وبادر مجيبا: "أتريد أن ترى الكنز؟.. حسنا، سأريكه الآن!". ولم أمنعه من أن يغادر المكان —في هذه المرة– إذ كان التعب قد برح بي، ولم أعد —في قرارة أعماق قلبي– أعبأ بالكنز. وراقبته وهو يسير نحو كوخ صغير آخر، لم أكن قد لاحظته من قبل، إذ كان متواريا خلف الأشجار،

في ظلال السياج. فقال ريميدجيو: "إنه يهرب!". فأجبته وأنا أستند إلى معولي، وأمسح العرق عن جبيني: "لا، إنه لا يهرب!". وكنت على صواب، فما لبث مارينيسي أن خرج من الكوخ، وهو يدفع عربة صغيرة محملة حتى حافتها بالقش. وتقدم إلى الثغرة، فقلب القش فيها، ثم دس إحدي قدميه بداخلها، وراح يسوى القش مستخدما يديه معا.

وسألته مترددا: "وبعد.. ما شأن الكنز؟"

فأجاب: "هذا هو الكنز.. انظر، ما أجمله!"

وقبض في الوقت ذاته على حفنة من القش، وكوم المادة الطرية، النتنة، ودفعها تحت أنفي، وهو يقول: "انظر.. ألا تراه شبيها بالذهب؟!.. هذا هو الكنز.. أرأيت أي كنز هو؟!.. أين تستطيع أن تعثر على كنز كهذا؟.. هذا هو الكنز...". وكان يتحدث إلى نفسه، غير حافل بوجودنا. ثم صعد من الحفرة، وهو ماض في كلامه، فدفع العربة إلى الكوخ، وملأها من جديد، ثم عاد بها إلى الحفرة، فقلبها فيها مرة أخرى.. وأخذ يسوى سطحها من جديد، فقلبها فيها مرة أخرى.. وأخذ يسوي سطحها من جديد، وهو لا يزال يردد: "أرأيت أي كنز هو؟.. هذا هو الكنز!"

ونظرت إلى ريميدجيو.. ونظر ريميدجيو إلي، ثم استجمعت قواي، وأشهرت مسدسي ثانية. ولكن "مارينيسي" أزاحه جانبا –لفوره– وكأنه مجرد قطعة من الخشب. وقال: "كف عن هذا.. دعك منه.. إذا كنت تبغي فضة، فهل تدري أين تستطيع العثور عليها؟"

وسألته بسذاجة: "أين؟"

– في حانوت.. إذا دفعت مقدارا معينا من ورق النقد فئة الألف ليرة،

كان لك أن تحصل من الفضة على ما تشاء! وتجلي أنه كان طيلة الوقت يخدعنا ويغرر بنا.

وتساءل ريميدجيو بلهجة مثقلة بالخيبة: "وما أمر هذه الحفرة التي حملتنا على حفرها؟"

– ما بالها؟.. إنها حفرة لإعداد السماء العضوي.. إنها الشيء الذي كنت في حاجة ماسة إليه.. لقد أعفيتماني من التعب!

وشعرت بجميع قواي تزايلني.. وفكرت في أنه من الجدير بي أن أهدده وأتوعده، بل وأن أطلق عليه الرصاص.. ولكنني أحسست –بعد كل الحفر وخيبة الأمل– بأنني عاجز عن أن أفعل شيئا!

وقلت أخيرا: "إذن، فليس هناك كنز ما؟". وتمنيت إذ ذاك أن يؤكد مارينيسي أنه لم يكن للكنز وجود فعلا. ولكن الشيطان الكهل البغيض، قال: "هناك.. وليس هناك!".

– ما الذي تعنيه بهذا القول؟

– أعني أنه كان من المحتمل أن يكون ثمة كنز، لو أنك جئت في النهار بطريقة ودية.. أما وقد جئت بالطريقة التي جئت بها، فلا كنز هناك!

وأرسل بصره –في اللحظة ذاتها– نحو الكوخ، غير مكترث بنا. ثم سار نحوه. فجريت خلفه متقطع الأنفاس، وأمسكت بكمه، هاتفا: "بالله عليك يا مارينيسي..". فالتفت نحوي، وقال: "لماذا لا تطلق الرصاص علي؟.. ألم تؤت مسدسا!"

فقلت له: "لست أبغي إطلاق الرصاص عليك.. لنقتسم الكنز!".

– كن صريحا واعترف.. أنك لم تؤت جرأة على إطلاق الرصاص.. إنك لا تصلح لشيء، كما ترى.. أن أي أمرئ غيرك، كان خليقا بأن يرميني بالرصاص.. لقد كان الألمان يقتلون بالرصاص!

– ولكنني لست ألمانيا!

– لا بأس إذن.. إذا لم تكن ألمانيا، فعم مساء!

وما إن لفظ هذه الكلمات، حتى دخل الكوخ، وصفق الباب في وجهينا.

هكذا كانت نهاية قصة الكنز..

وفي اليوم التالي، وفد "مارينيسي" على الفندق في الموعد المعهود، فلما حملت إليه زجاجة النبيذ،

صاح: "آه، أنت الشاب الذي كان يسعى وراء كنزي.. ما الذي فعلته بمسدسك؟"

ولم ينتبه أحد لهذا القول لأنه كان كثير الثرثرة والهذيان، كما قلت، وكان معظم حديثه لغوا.

ولكنني لم أشعر بأنني في أمان.. كما أنني لم أرض بأن أكون مستغفلا أمام رميدجيو، الذي عرف كل شيء عن الأمر، وأخذ يضحك وكأنه لم يؤمن –هو ذاته– بوجود الكنز!

لذلك فسرعان ما انتهزت فرصة عمل جديد عرض على، فرحلت لالتحق بمطعم "ري تراستفيري"، بميدان سان كوسيماتو. ولكن ريميدجيو مكث في سان بانكراتسيو .

# الفهرس